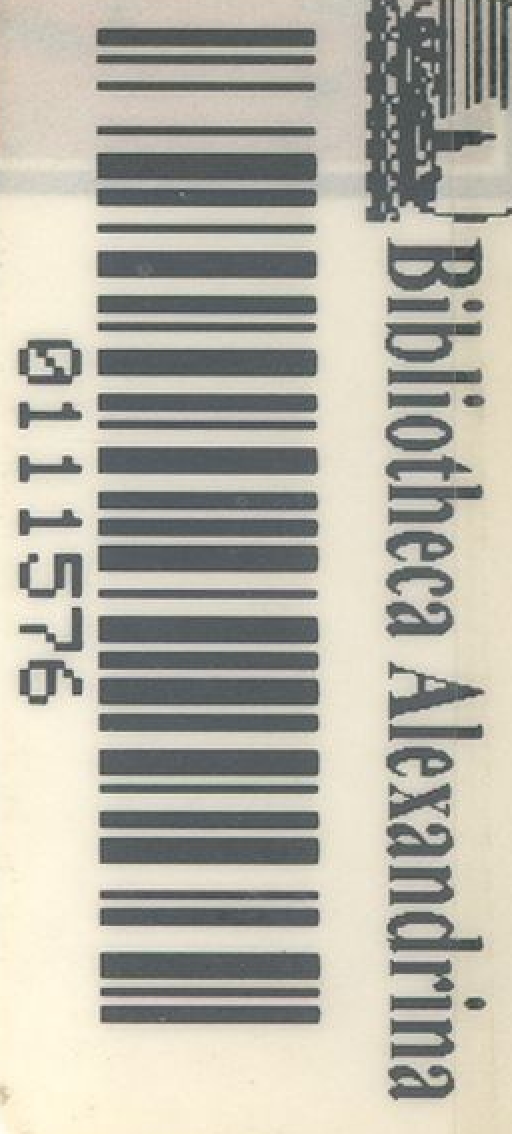
الحبيب المجنون

قصص قصيرة

د . محمود دهموش





الحبيب المجنون
قصص قصيرة

د . محمود دهموش

لوحة الغلاف للفنان : أحمد مُعلاّ

الطبعة العربية الأولى : مايو ١٩٩٨

رقم الإيداع : ٩٨/٥٥٦٦

الترقيم الدولى : I.S.B.N. 977-291-085-3



رئيس المركز

على عبد الحميد

مدير المركز

محمود عبد الحميد

المشرف العام على السلسلة الأدبية

خيرى عبد الجواد

الجمع والصف الإلكترونى

مركز الحضارة العربية

تنفيذ : محمد الغليونى

٤ ش العلمين عمارات الأوقاف

ميدان الكيت كات

تليفاكس : ٣٤٤٨٣٦٨

د . محمود دهموش



قصص قصيرة



نادية .. وأنا



عندما انتهيت من فحص آخر مريضاتى كانت الساعة قد جاوزت منتصف الليل ، كانت "نادية" لا تزال تدور فى المكان بلا كلل تجمع الأدوات المبعثرة وتنظف سرير الفحص نازعة عنه الملاءة ، واضعة أخرى نظيفة بدلاً منها قبل أن تنحنى برشاقة لتفرغ سلال القمامة بنفسها فى كيس كبير تحرص على وضعه خارج العيادة ليلتقطه عامل النظافة عند الفجر .

راقبتها وهى تعمل بهمة لا تفتر ونشاط لا يتلائم مع سنوات عمرها الخمسين .

وقلت بإشفاق :

-"ألا تدعى هذه الأشياء لأم صبرى تقوم بها وهى تنظف المكان غداً؟".

ابتسمت بلطف وقالت ونظرة عتاب حانية تجول فى عينيها :

- "تعلم يا دكتور نبيل أننى أحب أن أقوم بهذه الأشياء بنفسى ، ولو كنت أصغر من هذا بعشر سنوات لما جعلت أم صبرى تأتى إلى هنا من الأصل ، فلا تنظيفها للمكان يعجبنى ولا ترتيبها للأثاث يرضينى ، غير أن صحتى لم تعد كما كانت .."

يحسدنى عليها زملائى الأطباء .. شعلة من النشاط والحيوية ، جوهرة خامتها الإخلاص والتفانى فى العمل .. تتعلم بسرعة ولا تكرر خطأ ارتكبته أبداً .. تنظم مواعيدى وترتب زيارات المرضى بطريقة مدهشة فلم

يحدث أن اشتكت مريضة من طول انتظارها لى .

لا أذكر أن نادية تغيبت يوماً عن العيادة ، كنت أراها تتحامل على نفسها حين تمرض كى لا يحدث غيابها ارتباكاً لى فتأتى إلى العيادة بوجه شاحب وعينين ذابلتين لتمارس مهامها بنفس الإخلاص ولا تغادر المكان قبل أن ترده إلى نظامه المثالى ومظهره المشرف .. ولا تعود إلى بيتها إلا بعد أن تذكرنى أكثر من مرة بمواعيد وارتباطات الغد ، وتظل تؤكد علىّ ألا أنساها لمعرفتها بضعف ذاكرتى ، وكثرة شرودى ، ثم تدس بعد كل هذا ورقة صغيرة فى يدى مدون عليها تلك المواعيد أضعها فى جيب الجاكتة أو أنساها فيظل صوتها وهى تكرر على مواعيد الغد أكثر من مرة هو دليلى الوحيد للتحرك فى اليوم التالى ..

لا زلت أذكر كم حاول بعض زملائى الأطباء استقطابها للعمل لديهم ، بالاتفاق معى تارة وبإغرائها بمضاعفة مرتبها تارة أخرى ، بل إن أحدهم عرض علىّ أن أفصلها من العمل ليستطيع إقناعها بالعمل معه فى مقابل أن يحضر لى .. بدلا منها ممرضتين لا واحدة مع تعهده بدفع راتبيهما من جيبه نيابة عنى ..

ابتسمت دون أن أرد ، ولم أزد عن استدعاء نادية لتتولى الرد عليه بنفسها ، وفاجأته بقولى لها على مسمع منه :

"الدكتور مدحت يريدنى أن أفصلك من العمل هنا يا مدام نادية ليضطرك لقبول العمل فى مكان آخر وبمرتب أعلى ، فما قولك ؟" .

ابتسمت قائلة :

"لكننى لست فى حاجة للعمل مساء يا سيدى .. ولو فصلنى الدكتور نبيل فسأبقى فى بيتى ... لدى ما يشغلنى ..."

تساءل الدكتور مدحت متعجباً :

"ما الذى يجبرك على العمل عند الدكتور نبيل وهو الذى لا ينتهى من عيادته قبل منتصف الليل ؟"

ابتسمت بغموض وتمتمت :

"رداً لجميله علىّ" .

أطلق الخبثاء إشاعة عن حب يربط بينى وبينها - وكان ذلك قبل عشرين عاماً - وزاد آخرون فزعموا أنها زوجتى وأنها بملازمتها لى فى العيادة ترانى وتقضى معى وقتاً أطول من ذلك الذى ترانى فيه "علية" ، زوجتى التى أظهر معها فى المجتمعات وأم أبنائى الثلاثة ... لم يكن بوسعى أن أسرف عليهم فى اللوم فما كانت "نادية" تبديه من إخلاص وتمسك بالعمل عندى مهما كانت الإغراءات لحرىّ بأن يحرك الظنون فى رؤوس أصحاب النفوس المريضة .. فلا أحد منهم كان يعلم بحقيقة ما بينى وبين نادية ..

***

قبل عشرين عاماً كانت نادية شابة فى السابعة والعشرين من عمرها وكانت قد التحقت بالعمل فى عيادتى منذ عامين أثبتت خلالهما كفاءتها

ونشاطها .. بدافع من حرصهـا على نيل رضائى كى لا أستغنى عنها وهى فى أمس الحاجـة للراتب الذى تتكسبـه من العمل لدى مسـاءً لتضيـفه إلى راتبها من الـعمل كممرضـة فى المستشفى صـباحاً وتضع ما يتبـقى لها من ذلك كله فى دفتر توفـير مع نقود خطيبهـا الذى يعمل محاسبـاً فى الصباح وعاملاً فى محطة بنزين فى المساء .

لم يبد أن عجزهما عن إيجاد مسكن وتجـهيزه بأقل الاحتياجات قد نال من روحها المشـرقة ولا قلبها المفعم بالأمل ، بـالرغم من مرور سبع سنوات على ارتبـاطهمـا بالخطبـة .. سبـع سنوات طوال توجاها آخـر الأمـر بعقـد قرانهما لجماً لألسنة أهلها الذين راحوا يحثونها على الانفصال عنه والزواج من غيره .

عندما مـر عام على عقد قرانهـا دون زفاف سألتهـا يوماً وأنا ألمح الدمع يجول فى عـينيهـا وآثار الصراع بين الأمل والإحـباط ترسم تعاريـج حزينة على صفحة وجهها .....

- "اعذرينى لتطفلى على أمور حياتك لكننى أتساءل لم لا تضعان حداً لمشكلتكـمـا بالإقـامـة مؤقـتـاً عـنـد أبيـه أو أبيك ريـثـمـا تدخـران مـا يفى باستقلالكما" ..

قالت بصوت جاهدت لتجعله يخرج طبيعياً :

- اما أنا فيـتيمة كـفلنى خالى وأدين له بالعرفان ولا أسـتطيع أن أطالبه بإنفاق قرش واحد على تجهيزى ، وحسـبه أنه لا يزال يتحمل وجودى بينهم

بعد كل هذا العمر وبعد سنوات الخطبة التى طالت ... وأما حسين زوجى فله من الأخوة ستة وهو يساعد والده فى الإنفاق عليهم وكلهم فى مراحل التعليم المختلفة .. فلا يوجد فى بيتهم مكان يسعنى وأنا زوجة .."

ثم ملأت رئتيها بالهواء ورسمت ابتسامة واسعة على وجهها واستطردت :

- "أما حضرتك يا دكتور نبيل فقد أضعت من وقتك ثلاث دقائق ، مريضاتك أحق بهن منى . فاسمح لى أن أستأذن لتبدأ عملك .."

واستدارت مسرعة وقد خانتها دمعة تدحرجت على خدها الشاحب .. وغادرت الحجرة مخلفة فى نفسى أسى وتعاطفاً . وددت معهما لو استطعت أن أمد لها يد العون ...

مرت بعد ذلك أسابيع وشهور حرصت خلالها نادية على الا تعيد فتح هذا الموضوع معى فتشبثت بابتسامتها المشرقة ، وأبت عليها كرامتها أن تدعنى أراها ساهمة أو دامعة حتى نسيت فى غمرة مشاكلى الكثيرة وأعباء عملى أن ممرضتى المخلصة تعانى مشكلة كبرى تعطل سعادتها وتغتال سنوات شبابها .

بدا لى وكأن عذابها لا نهاية له ، فتحاشيت بدورى نكأ جرحها وسرعان ما انشغلت عنها بعملى وحياتى ...

***

فى أحد الأيام بدت نادية شديدة الاضطراب كثيرة الشرود ، إلى حد أن

المريضة كانت تخـرج فأظل أنتظر دخول المريضة التى تليها دقـيقتين وثلاث وخمس دون جدوى فأدق الجـرس غاضباً لتهرع إلىّ نادية مـذعورة وكأننى انتزعتها من نومها انتزاعاً وتسـألنى بارتباك إن كنت أريد شيئاً ، فأصرخ بها أن لى خمس دقائق أنتظر دخول المريضة التالية فـتسرف فى الاعتذار متعللة أنها لم تنتبه لخروج المريضة من عندى فأرمقها بدهشة وغيظ وآمرها أن تقوم بإدخـال المريضة التـالية والانتـباه لعـملها .. وإلا فلتـحصل علـى إجازة إن كانت همومها الشخصية تطغى على قيامها بعملها كما ينبغى .. ولكن عبثاً كان حديثى مـعها فظلت على شرودها طوال المسـاء إلى أن أضطررت مرة أن أقوم من مكانى وأخرج إلى صالة الانتظار لأناديها لأن همومها طمست على أذنيها فلم تسمع رنين الجرس .

لما انصرفت آخر مريضاتى كان غضبى على نادية قد بلغ غايته ، غير أنها سارعـت بالمثول أمـامى تعتـذر وتطلب عفـوى لأنها تمر بظـروف قاسـية تعذبها ..

قاطعتها بجفاء :

- "لا يهمنى اعتذارك بقدر ما يهمنى ألا يتكرر ما حدث منك اليوم أبداً .. فقد ساءنى كثيراً" ..

نشجت باكية بدموع غـزيرة جعلتنى أرتبك بعض الشئ فما كنت أتوقع رد فعل مبالغـاً فيه كهذا رداً على جملة عتـاب أقل ما توصف به أنها جملة رقيقة .. انتظرت أن تكف عن البكاء بيد أن نشيجها ازداد حدة وارتفاعاً ، وازدادت دموعـها غـزارة ، فلفنى ضيق مـبهم حاولت أن أبـدده بوضع حد

لهذا الموقف المزعج قائلاً :

- "لا تعطى الأمور فوق حقها يا نادية .. عودى إلى بيتك الآن وغداً سيكون كل شئ على ما يرام" .

هتفت من أعماقها بلوعة :

- "أنا فى ورطة يا دكتور نبيل .."

- "خيراً إن شاء الله ؟" ..

انهارت جالسة دون استئذان وخرجت الكلمات من بين شفتيها كالصرخة تمزق فضاء الحجرة :

- "أنا حامل" ..

تصاعد ارتباكى واشتدت وطأة شعورى بخلو العيادة من الناس فى تلك الساعة المتأخرة من الليل .. ولم أدر ماذا أقول غير أننى ابتسمت ابتسامة باهتة ، وتمتمت متلجلجاً :

- "ذرية مباركة بإذن الله ..."

هتفت بحرقة :

- "ولكننى لا أريد هذا الطفل ..."

هونت عليها :

- "لا تقولى هذا يا نادية .. استغفرى الله ألا ترين لهفة العاقر على الحمل ؟ أنت تعملين معى منذ فترة ولا شك أنك قد لمست بنفسك القهر

الذى تستشعره المرأة حين يعجز الطب عن منحها ما أعطاه لك الله بكل يسر وسهولة .. أفلا تحمدين الله على نعمته عليك ؟" ..

خف نشيجها بعض الشئ فاستطردت متشجعاً بالأثر الطيب الذى تركه كلامى فى نفسها :

- "إن كنت تحملين هم الرزق ، فالله الذى خلقه سيرزقه من حيث لا تعلمين .. وكما يسّر الله لك اجتماع شملك بحسين زوجك بعد طول صبر ومعاناة ، فضمكما أخيراً بيت واحد سييسر لكما تنشئة طفلكما كما تتمنيان" ..

... وكأننى قد نكأت لها جرحاً ولولت باكية :

- "لكننى لم أجتمع وحسين فى بيت واحد يا سيدى .. وتلك هى المصيبة .."

أدركت فجأة سبب همها ، وعاودنى شئ من الارتباك بيد أننى قلت مهوناً :

- "هذا لا يمنع أنكما زوجان" ..

- "لسنا زوجين فى عرف خالى ولا فى عرف المجتمع" ..

- "هذا أمر لا جدال فيه .. أنتما زوجان شرعاً وقانوناً .." .

- "لكننا خالفنا كل الأعراف والتقاليد .. وسطوتهما أحياناً تكون أقوى من سطوة الدين والقانون" ..

لم أحر جواباً فى مواجهة منطقها القوى ، وكنت أدرك بالطبع أنها فى

موقف لا تحسد عليه ثم خطر لى خاطر بدا لى مخرجاً مثالياً لورطتها فقلت وقد أشرق وجهى بالابتسام :

- "عجلاً بزفافكما إذن .. ولن يهتم أحد ساعتها إن ولد الطفل قبل موعده بأسابيع" ..

تطلعت إلى بأعين مخضلة بالدمع وهمست بيأس

- "لن يرضى خالى أن يزفنى إلى حسين دون وجود شقة تجمعنا" ..

- "لا يبقى أمامك إلا أن تستجمعى شجاعتك وتواجهى خالك بما حدث .. ولا إثم عليك" ..

فانشطر قلبها وهى تبكى :

- "سيطردنى من بيته .. أنا أعرفه .. إنه يتصيد لى أى هفوة ليتخلص من عبء مئونتى وقد طالت إقامتى عنده لأكثر من عشرين عاماً .. أتظنه يتحملنى وقد زللت فى نظره ويقبل وجودى بينهم لأفسد أخلاق ابنتيه وأثير تساؤلات ولديه ؟ وهبه رضى بوجودى على مضض أتظنه يطيق طفلى معه ؟ إن تركته لأعمل ملأ البيت بكاءً وضجيجاً ، وإن بقيت معه لأرعاه وجب على خالى أن يطعمه ويطعمنى ؟" .

ثم هتفت بحرارة :

- "يا ليتنى مت قبل أن يأتى هذا اليوم" ..

صمتت فلم يعد يسمع فى الحجرة سوى صوت نشيجها الخافت وشعرت أنها سدت فى وجهى كل السبل فلم أعد أجد شيئاً مناسباً أقوله ،

أو حلاً مرضيـاً أقدمه لها .. فلزمت الصمت واعتصـمت بالصبر منتظراً أن ينتهى هذا الموقف المحرج بأى طريقة متسـائلاً بينى وبين نفسى كيف يا ترى سأستطيع التعامل معـها دون خجل بعد أن هتكت أمامى كل أسرارها على هذا النحو ؟

وفجأة رفعت رأسها، وبرقت عيناها بحماس مفاجئ، واندفعت تقول :

- "وجدت المخرج يا دكتور نبيل .. أنا لا أريد هذا الطفل ... لا أريده.. خلصنى منه .."

جفلت من قولها ، فعادت تردد بإصرار عجيب :

- "خلصنى منه .. الآن .. هنا .. لن يشعر بنا أحد .. ولن يستغرق الأمر ربع ساعة .." .

صحت بها : "من قال لكى أننى أقوم بتلك العمليات القذرة" ؟ .

استعطفتنى ودموعها تنساب :

- "فلتفـعلها هذه المرة فـقط .. خدمـة من أجلى .. احفظ لك جـميلك العمر كله .."

جمعت أوراقى ومفاتيحى أهم بالانصراف وأنا أردد غاضباً :

- "لولا تقديرى لقسوة ظروفك لكان لى معك تصرف آخر" ..

تشبثت بملابسى وعادت تقول برجاء:

- "هبنى امرأة مريضـة قد يقتلها الحمل ويدمـر حياتها تدميـراً ، أما كان

الطب والدين سيبيحان لك إجهاضها ؟ هذا الطفل سيدمرنى ويلقى بى إلى الشارع .. ولو تحديت مع حسين كل الناس فسنموت كلنا جوعاً .. صدقنى يا دكتور أننى أولى بالإجهاض من أية امرأة مريضة" ..

خلصت نفسى منها بصعوبة وقفلت عائداً إلى منزلى وصوت نشيجها يعدو خلفى صارخاً بى أن أمد لها يد العون بأية وسيلة حثثت الخطو مبتعداً عن المكان معتصماً بضميرى من رقة قلبى

***

تحاشيت النظر إليها والتعامل معها ما وسعنى وكانت بدورها لا تتجاسر على رفع بصرها عن الأرض ، لكننى استطعت أن أدرك من اللمحات الخاطفة التى كنت أسترقها إلى وجهها أن مشكلتها لم تحل بعد ، ووشت عيناها المحمرتان المتنفختان بليل تقضيه مؤرقة تبكى ، ودل شحوبها وهزالها على نفسٍ قد عافت الطعام منذ أيام طويلة ..

يوماً وقفت أمامى برهة صامتة .. دون أن أرفع عينى عن بعض الأوراق المنثورة أمامى على المكتب قلت :

- "ادخلى المريضة التالية" ..

قالت بصوت خفيض :

- "لاتوجد مريضات فى الخارج يا دكتور" ..

- "حسناً" ..

قمت من مكانى أهم بخلع معطفى الأبيض ..

استوقفتنى بإشارة من يدها وهى تقول :

- "هل تسمح بمقابلة حسين .. زوجى .. ولو لخمس دقائق فقط ؟" ..

توقفت برهة أنظر إليها متأرجحاً بين الرفض والقبول ، ثم رأيت أن أفسح صدرى وأستمع إليه ، فمن أدرانى فيما جاء وماذا يريد ؟ ..

***

دلف إلى الحجرة وفى أعقابه نادية .. طويل .. نحيف كالرمح ، أسمر عالى الجبهة ، تتوقد عيناه حماساً وذكاءً .. مدّ إلىّ يده وقال بصوت خفيض مهذب :

- "حسين عواد .. زوج نادية .. تشرفت بلقائك يا دكتور نبيل" .

لم يسعنى إلا أن أمد يدى فأضعها فى يده الممدودة وأنا أشير إليه بيسراى أن يتخذ مجلسه على المقعد الموضوع أمام مكتبى ، فرنا إلى نادية واقفاً فتلقيت إشارته الحيية وقلت ببساطة :

- "اقعدى يا نادية" .

جلسنا .. وساد الصمت بيننا برهة قبل أن يقطعه حسين :

- "عرفت من نادية أنها قد باحت لك يا سيدى بقصتنا كلها .. ولقد جئت اليوم لأشكر لك سعة صدرك وسماعها .. ولأؤكد لك أن قرار نادية بالتخلص من هذا الجنين ليس قرارها وحدها ، بل إننى أؤيده وأوافقها عليه.. وعلى استعداد لأن أوقع لك على أية ورقة أو إقرار أتحمل فيه المسئولية الكاملة عن إجهاضها ، وأعفيك من كل ذنب أو خطأ .." .

عصف بي غـضب كظمتـه بالكاد ، وللحظة ندمت أن رضيت بـلقائه ، وهمـمت أن أطرده ونادية شر طردة بعـد أن أخبـره برأيي في نذالته وجـبنه ذلك الذى لا يملك من الرجـولة ما يعـينه على تحمل مـسئوليـة أخطائه ولا يبالى - فى سبيل نجاته - أن يعرض زوجته للخطر ..

غـير أننى تذكـرت .. وكـأنما فجـأة أن واجب الطبـيب لا ينحصـر فى معالجة الأجساد فحسب بل يمتد لمعالجة النفوس المعتلة كذلك ، فباخ غضبى فجأة ، وسألته بهدوء :

- "هل تدرك أنك تعرض حياتها للخطر ؟"

قال بثقة :

- "كثيرات يجرينها ولا يحدث لهن شئ" .

- "هب أنها نجت ، ألا يحز فى قلبك أن تقتل ولدك" ؟

جفل لحظة ثم قال :

- "يا دكتور، إن الجنين لا يصير طفلاً قبل مرور ثلاثة أشهر من الحمل" .

- "بل هو مخلوق وله كيان منذ اللحظة الأولى فلا تغالط نفسك" .

ساد الصمت بيننا قبل أن يقطعه قائلا :

- "لا تظن يا دكتـور أننى بلا قلب أو ضـمير .. إننى أخـشى الله وأفعل الخير .. ولكن . لكن الضرورات تبيح المحظورات" .

- "لا أرى ضرورة فى حالتكما .. فـلا تؤوّل الكلمات وفق هواك فتلك

كلمة حق يراد بها باطل"

لمحت بطرف عـيني دمـوع نادية ، وقـد بدأت تنحـدر على خـدها الشاحب.. أخذتني بها الشفقة وقلت بلين :

- "هل تحبين حسين يا نادية ؟"

ارتبك الفـتى وتورد وجـه نادية الـشـاحب وهى تهـتف بصـوت أضناه الوهن والمعاناة :

- "إنه كل حياتي وأجمل ما فيها" .

- "يسعدك إذن ولا شك أن يكون لك منه طفل ؟"

- "نعم .. ولكن فى الوقت المناسب"

قلت : "لعل هذا يكون أنسب وقت .. من يعلم ؟"

تدخل حسين فى الحديث :

- "أنا أعلم يا سيدى أنه ليس أنسب وقت .. بل إنه أسوأ وقت يمكن أن نبـتلى فيـه بطفل نرعـاه ونحن لا نكاد نسـتطيع إعالة أنـفسنا .. ولكن بعـد سنوات .. ستكون الأمور قـد تحسنت ، وعندئذ أعاهدك أن ننجب بدلاً من هذا الطفل طفلين أو حتى ثلاثاً .."

سـألته مـبتـسـماً : "ومن أدراك أنكمـا ستـكونان قادرين على الإنجـاب عندئذ"..

ابتسـم باستهانة وهو يقول :

- "ماهذا القول الغريب يا دكتور نبيل ؟ أنا ونادية فى شرخ الشباب ولا تزال أمامنا سنوات وسنوات قبل أن نعجز عن الإنجاب .. ولا موانع لدينا تعطل الحمل كما ترى .. فعلاقتى بنادية كزوجين لم تبدأ إلا منذ أربعة أشهر وهاهى حامل فى شهرها الثانى".

ابتسمت وأنا أقول لنفسى :

- "اعتزاز الشباب بقوته وفتوته" .

قلت له :

- "كلامك سليم ومنطقى على اعتبار أنك تضمن لنفسك ولنادية السلامة من كل مرض أو حادث يجعل أحدكما غير قادر على الإنجاب"

بهت قليلاً فعاجلته :

- "أم أنك تنوى أن تهجر نادية إلى غيرها لو ترتب على إجهاضها عجزها عن الإنجاب فيما بعد ؟"

سارع نافياً بإخلاص :

- "لا .. يا دكتور .. إن نادية هى حب حياتى ، ولا أعدل بها امرأة أخرى فى الوجود مهما حدث"

قلت مشجعاً :

"لا تبخسا نعمة الله عليكما حقها ، وتظنان أنكما قادران على تعويضها فى أى وقت شئتما لمجرد أنها قد جاءتكما بكل يسر وسهولة .. أحياناً

لا تأتى الفرص سوى مرة واحدة فى العمر والنعمة التى تحملينها يا نادية قد يتمنى غيرك أن يدفع نصف عمره عن طيب خاطر ثمناً لها" .

أطرق حسين متفكراً ، عاد الصمت يطوقنا حيناً حتى مزقته قائلاً :

- "أعلم أنكما قد تجدان طبيباً غيرى يطاوعكما على ما تريدان ، ولكن رجائى إليكما أن تفكرا فيما قلته فما أبغى غير الخير لكما ..."

***

لم أعد إلى إثارة هذا الموضوع مع نادية لكننى راقبت انتظامها فى الحضور بقلب يملؤه الأمل وصرفت عن رأسى هاجساً راح يطاردنى بأنها قد تجهض نفسها يوم خميس فلا أدرى بمصير الجنين فلو تم الإجهاض بسلام ستستطيع أن تمارس عملها يوم السبت دون أن أستشعر تغيراً يذكر فيها .

لكن الأسابيع مرت ، ومع مرورها تابعت بسرور بالغ بطن نادية وهو ينتفخ ويتكور اسبوعاً بعد أسبوع ، ويوم لاحظت انتفاخ بطنها لأول مرة ركزت بصرى عليه أحقق مما أرى وحين رفعت بصرى عن بطنها اصطدمت عيناى بابتسامتها المتألقة تشق وجهها فارتبكت وتضرج وجهى غير أننى جاوبتها بابتسامة مشرقة ومشجعة ولم نقل شيئاً ..

لكن بشاشتى فى معاملتها بعد أسابيع من الجفاء قالت لها أننى قد سامحتها ، ولمعة عينيها رغم علامات الإجهاد المفرط على وجهها وشت لى بأنها أحبت طفلها من قبل أن يرى النور رغم المعاناة والتمزق بلا بيت

بجمعها وزوجها ، ويقيهما غضبة أهليهما لتسرعهما فى إتمام الزواج دون إذن ..

يوماً قلت لها مبتسماً وقد انتهيت من فحص آخر مريضاتى :

- "ألا تنوى أن تنضمى إلى سرب الزبائن .. لا تخشى شيئاً فلن أتقاضى منك ثمن الكشف" .

ضحكت ثم استلقت شاكرة على سرير الفحص .. ومن يومها صرت أفحصها بانتظام كل أسبوعين ومرة قالت لى وأنا أقيس لها ضغط الدم لأطمئن على حالتها العامة :

- "لقد طردنى خالى حين علم بما حدث" .

رفعت إليها عينى ولم أعلق ، وتساءلت ترى هل تلومنى بأسلوب مهذب على ما آل إليه حالها بعد ما غضب خالها عليها ؟

بيد أنها استطردت ووجهها يشرق بالبهجة :

- "لقد كنت أتصور أن فى هذا نهاية حياتى ، ولكن الأمر لم يكن بهذا السوء .. لقد رحب والدا حسين بإقامتى بينهم مؤقتاً .. رحمة بابنهما وحفيدهما ولو أنهما اشترطا علينا ألا تطول إقامتنا لأكثر من شهر ندبر فيه أمرنا ..

"فابتسمت ابتسامة صغيرة وأنا أتمتم :

- "عسى أن يأتى الفرج سريعاً من عند الله"

***

كان حملها يتقدم بصورة طيبة للغاية ، ومرة كنت أستمع إلى نبض الجنين حين قالت لى وعيناها مخضلتان بالدموع :

- "كم أتمنى لو أستطيع أن أستمع إلى دقات قلبه ليل نهار .. إنها تبدو لأذنى كشدو البلابل"

أضافت ونظرة حالمة تكسو وجهها :

- "تماماً كما تبدو ركلاته الصغيرة لى كقبلات الملائكة"

- "يسرنى أن أراك تزدادين تعلقاً بجنينك يوماً بعد يوم"

هتفت بحرارة :

- "إننى لأرتجف كلما مر ببالى أننى كنت أريد التخلص منه ذات يوم.. كم كنت قاسية وحمقاء .."

قلت باسماً :

- "لعل حسين يكون قد تعلق هو الآخر بالوليد المنتظر"

فردت بسرور :

- "تعلق به أكثر مما تتصور يا دكتور نبيل .. إنه يمضى الساعتين اللتين يقضيهما فى البيت ظهراً واضعاً يده على بطنى مترقباً أدنى حركة تند عن الطفل ، ولا ينام ليلاً إلا واضعاً يده على بطنى فيظل يحادث طفله وكأنه يراه ... يتخيله ليلة ولداً فيظل يحدثه عما يريده أن يكون عليه حين يكبر من اخلاق قويمة أو مركز مرموق ، ويتخيله ليلة بنتاً فيظل يدللها بأحلى

الكلمات ويمتدح جمالها ورقتها ونعومتها حتى أستشعر دبيب الغيرة فى قلبى . فهو على الرغم من حبه لى ، لم يسمعنى كل هذا الكلام الجميل يوماً .. وأجمل اللحظات يقضيها فى انتقاء أسماء لطفلنا فيوماً يسمى الولد ياسر ويوماً يناديه خالد ، ومرة تكون البنت سارة وبعد أسبوع تصير نجوى.. ولا أكتمك خبراً يا دكتور نبيل اننى أقضى أسعد أيام حياتى وأنا أترقب معه رؤية طفلنا الأول للنور .. وكلانا يشعر بالذنب والخجل معاً أن فكرنا يوماً فى وضع حد لحياته وهو لا حول له ولا قوة .. كما نشعر بالامتنان لك أن ساعدتنا على أن نبصر الخير فلا ننحرف عنه .. غير أن حسين يستشعر خجلاً عظيماً منك فلا يجسر على مقابلتك ..."

***

كانت بطنها قد بلغت حجماً لا يستهان به حين دخلت إلى الحجرة بخطوات خفيفة لا تتناسب البتة مع حجمها الجديد وبنظرة واحدة إلى وجهها الحزين ولونها الشاحب أدركت أن هناك ما يهمها ، ابتدرتها :

"ماذا وراء سهومك يا نادية ؟"

همست بوهن :

- "مرّ الشهر سريعاً"

تذكرت شرط حماها حين استضافها فسألتها بإشفاق :

- "ألا يوجد ثمة أمل ليعدل أهل حسين عن شرطهما" ؟

- "لا أريد أن أكلفهما فوق طاقتهما"س

غرقت فى الصمت متفكراً أراقبها بإشفاق وهى رائحة غادية تعمل بما يسعها من جهد ونشاط حاملة ثقلها معها ، تنحنى به ثم تقوم .. لو ترك لها الأمر لخلدت للراحة ريثما يحين موعد الوضع ، ولكن حتى الراحة المشروعة تصير أحياناً رفاهية لا قبل للمرء بها .

فجأة برقت فى ذهنى فكرة ، وقلبتها على وجوهها المختلفة فما ازددت بها إلا اقتناعاً ..... صحيح ولم لا ؟

ولماذا نضن أحياناً بما لا حاجة لنا به على أناس هم فى أمس الاحتياج إليه ؟ فلأعتبرها "زكاة" عن أولادى ، عن صحتى .. عن أموالى .. وعن سعادتى مع زوجتى ..

بلد صوتى سكون المكان :

- "نادية .. أترضيان بحجرة واحدة وحمام فوق سطح إحدى العمارات القديمة ؟"

برقت عيناها بالأمل وابتسمت ابتسامة صغيرة غير أنها قالت :

- "حتى هذه الشقة لم نجدها يا سيدى"

- "فإن قلت لك إنها موجودة"

بدت عليها الحيرة وقالت بتردد :

- "أحقاً ما تقول يا دكتور .. ولكن أين وكيف ؟"

- "فى مصر القديمة" .

- "وخلوها ؟"

- "بدون خلو"

بدت في وجهها أمارات الريبة وتساءلت بتشكك وقد خبا أملها :

- "وإيجارها"

- "بدون إيجار"

تمتمت وهي تعود لعملها "ياله من حلم جميل يا دكتور نبيل"

قلت مؤكداً :

- "إنها حقيقة"

هتفت بإشفاق :

- "دكتور نبيل .. إنك تعبث بأحزاني"

استنكرت قولها :

- "حاشا لله يا نادية .. وهل مثلي يفعل ذلك ؟"

تورد وجهها خجلاً وقالت معتذرة :

- "آسفة على ما بدر مني .. فقد نال مني الحزن والحيرة"

عدت أقول :

- "إنها شقة صغيرة في عمارة قديمة ورثتها عن والدي وقد خلت من ساكنها منذ أسابيع ولن أضن بها على أخت مخلصة"

قالت بامتنان والدموع تملأ عينيها :

- "لكن هذا كثير . كثير جداً يا سيدى .."

- "اعتبرى إقامتك بها هدية أخ لأخته بمناسبة زواجها"

- "لا شئ يجبرك على مثل هذه التضحية"

- "لا داعى لاستخدام تعبيرات مبالغ فيها .. هل تنازلى عن بضعة جنيهات كل شهر يصح أن يقال عنه تضحية ؟"

- "تستطيع أن تتقاضى عنها خلواً لا بأس به فى هذه الأيام الصعبة"

- "هبى أن ساكنها لم يتركها وأننى لا زلت أتقاضى منه جنيهات قليلة كل شهر"

اعترضت :

- "ولكنه تركها بالفعل .. ولا يجوز لك أن تحرم أولادك من رزق ساقه الله إليهم"

قلت حسماً للجدال :

- "لعل هذا يكون خيراً لأولادى من الخلوّ .. فلا ترهقينى يا نادية بجدال لا طائل من ورائه .."

أغضت حياءً ... ، قلت مبتسماً أسرى عنها :

- "رزق المولود يا نادية .. سيكون رزقه واسعاً بإذن الله"

***

وددت لو أن فرحتهما اكتملت ودامت .. لكن كأن القدر قد ضن على اليتيمة بسعادة تطول فاختطف منها زوجها عقب انتقالهما لبيتهما ببضعة أسابيع .. مات وهو عائد من عمله صدمته سيارة مسرعة أفلت قائدها منطلقاً كالشهاب ، فلم يلمح أحد المارة رقم السيارة وتضاربت الأقوال حول نوعها ، وإن اتفق الجميع على لونها الأحمر اللامع ، وهكذا ضاع الزوج والحبيب فى غمضة عين ..

رغماً عنى .. تمثلته .. جالساً أمامى بسمرته الدافئة وعينيه البراقتين يقول بثقة الشباب :

- "أنا ونادية فى شرخ الشباب .. ولا تزال أمامنا سنوات وسنوات قبل أن نعجز عن الإنجاب"

المسكين ...

لم يكن يعلم أنه لم يبق أمامه سوى ستة أشهر يعجز بعدها حتى عن التنفس ..

المسكين ...

لم يكتب له أن يفرح بالطفل الذى أحبه .. قبل أن يراه .

***

عندما عادت نادية إلى عملها فى عيادتى عقب وضعها لطفلها بثلاثة أسابيع انفطر قلبى إشفاقاً عليها وأنا أراها قد ذوت وشحبت وترنحت خطاها تحت وطأة الحزن الجاثم على أيامها ..

كان ينتابنى لدى رؤيتها شعور جارف بالرغبة فى مواساتها ، لكنى لم أجد يوماً الكلمات المناسبة لحجم مصابها ، خاصة وقد لمست عن كثب الحب الذى كان يجمعهما ، فعظم إحساسى بفداحة صدمتها .. ورغماً عنى تساءلت :

هل ندمت يا ترى على احتفاظها بجنينها ؟ هل تعدنى مسئولاً بطريقة ما عن تورطها فى حمل مسئولية رعاية طفل والإنفاق عليه وحدها هل تتنازعها الوساوس فتتمنى لو كانت قد تخلصت من حملها كما كانت تريد، فساعتها كانت ستصير مجرد أرملة ... أرملة بلا أعباء .. تتكفل الشهور أو السنوات بمحو حزنها ونعود بعدها تحيا حياتها كما تشاء تتزوج وتنجب دون أن تحمل هم طفل يتيم يستجدى الرعاية والحب ؟

وكأنما قرأت أفكارى فقد ابتدرتنى يوماً قائلة :

- "إننى أدين لك بالكثير يا سيدى"

رفعت رأسى عن ورقة كنت أقرأها ، ونظرت إليها أتلمس الراحة لنفسى من وساوسها .

أردفت :

- "لست أدرى كيف كنت سأتغلب على صدمة موت حسين لو كنت قد أجهضت نفسى ، فحرمتها أجمل ذكرى تركها لى حسين وأحلى عزاء أواسى به قلبى عن حرمانه من الزوج والحبيب"

سألتها مستيقناً :

- "أفلا تتمنين لو كان قد تركك .. بلا مسئوليات"

هتفت من أعماقها :

- "ان حسين الصغير هو .. أغلى نعمة أنعم بها الله علىّ .. ما كنت لأتزوج بعد حسين أبداً . فمن لطفه بى ورحمته أن وهبنى ما أتعزى به طوال عمرى .. وضعك يا سيدى فى طريقى لتحمينى من شر نفسى فلا ارتكب جرماً أعض بنان الندم عليه حين يحم القضاء ويرحل زوجى عنى.."

نظرت إلىّ بإمعان وقالت بتمهل :

- "أعاهدك أن أحفظ لك جميلك .. ما حييت .. ما حييت ..."

***

كبر حسين ونما ... ماثل أبيه طولاً ورشاقة كأنه الرمح وأسعد والدته بتفوقه الدراسى وموهبته المبكرة التى تبدت فى الرسم الذى نال عنه جوائز عدة .. وكنت أرعاه عن بعد فقد كنت أشعر به وكأنه ابن لى بعد أن جعلنى الله أحد أسباب احتفاظ أمه به جنيناً .. فكنت أنفحها مبالغ صغيرة من المال كعيدية له فى المناسبات وحين ينجح كل عام بتفوق ملحوظ ..

وكانت "عليّه" زوجتى ترسل إليها ما تستغنى عنه من ملابس أولادنا فتوفر عليها جزءاً لا بأس به من مصاريف تربية حسين ..

وبلغت فرحة نادية منتهاها حين حصل حسين على شهادة الثانوية العامة بمجموع يحلق فى سماء التسعينات ، فالتحق بكلية الطب ويوم جاءت نادية

تزف إلىّ البشرى أضافت :

- "أملى أن أراه مثلك يا دكتور نبيل ... علم غزير تتوّجه أخلاق سامية"

***

إن نادية تقترب حثيثاً من الخمسين مع ذلك تدور طوال المساء بلا كلل تضع كل شئ فى موضعه ، تنظم لى مواعيدى ، لا تنسى أن تدس فى يدى قبيل انصرافى ورقة صغيرة تدون عليها مهام الغد لأتذكرها .

لا يزال زملائى الأطباء يحاولون استقطابها للعمل لديهم ، فى كل مرة ترفض بإصرار ضاربة عرض الحائط بنظراتهم المستريبة التى تكاد تصرخ فيها متسائلة ما الذى يربط بينك وبين الدكتور نبيل ؟

لكنها أبداً لا تشبع فضولهم .. فى كل مرة تقول وهى تبتسم فى غموض :

- "لو تركت الدكتور نبيل سأبقى فى بيتى .. إنما أعمل معه رداً لجميله علىّ ."

أعذرهم حين تناوشهم الظنون فلا أحد منهم يعلم بحقيقة ما بينى وبين نادية ..



المـوت .. حبـاً

* نشرت فى مجلة آخر ساعة عام ١٩٩٧
* ونشـرت فى مجلة أكـتوبر عـام ١٩٩٨

كنت منحنياً على سرير الحاج رجب أفحصه بدقة بعد أن تعرض لأزمة قلبية شديدة وعن يمينى وقف تلميذى النابه "د.حسن" يتابع عملى بعينين شغوفتين .. وعند قدمى الحاج رجب وقف ابنه الوحيد "سيد" يتابعنا بعينين مشفقتين .

أنهيت فحصى للحاج رجب وكتمت توجسى من أن تسوء حالته أكثر فى الأيام القليلة القادمة .. وكتبت له بعض الأدوية وطمأنته ببضع كلمات تبعث على الأمل والتفاؤل .

كنت أنزع السماعة من حول رقبتى ، وأضع قلمى فى جيبى ، وأطوى دفترى الصغير حين طرق سمعى صوت سيد ابن الحاج رجب وهو يسأل الدكتور حسن وعلامات القلق تكسو وجهه :

- "قل لى يا دكتور حسن .. ممكن أبى يطلع الحج السنة المقبلة ؟"

فرد عيه الدكتور حسن مستنكراً :

- "أى حج يا سيد ... لا يزال باقياً ثمانية أشهر ... ولا أحد يضمن عمره"

تلكأت فى موقفى قليلاً أستمع لبقية الحديث الدائر فإذا بسيد يتساءل بصوت هامس مختنقاً بالدمع :

- "تقصد أن أبى لن يعيش هذه المدة ؟"

هتف الدكتور حسن بنفاد صبر :

- "وحتى لو عاش .. ألا ترى صحته ؟ أنه لا يقدر على رفع يده"

تمتم سيد بأسى :

- "وددت لو أحقق لوالدى حلمه الأخير"

ونهضت من مكانى عندئذ وقلت لحسن وأنا أحاذيه :

- "إلحق بى فى مكتبى عندما تنتهى من عملك .."

***

- "تعلم يا حسن كم أنا معجب بمهارتك فى عملك وتفوقك فى علمك.. وأعتبرك أنبغ تلاميذى"

- "تلك شهادة أعتز وأفخر بها يا سيدى"

- "أود أن أقص عليك قصة وقعت أحداثها أمامى على عهد الشباب"

تعلق بصره بى وأرهف سمعه منتبهاً :

- "عقب حصولى على درجة الدكتوراه جاءت إلى المستشفى الذى كنت أعمل به فتاة عمرها دون العشرين تعانى من أزمة قلبية ، فحصتها فوجدتها تعانى من ضيق فى الصمام الميترالى وكانت وأهلها على علم بحالتها ، فقد ولدت بهذا العيب الخلقى ، ولم تكن تلك هى أول أزمة حادة تمر بها ..

كان العلاج الجذرى لحالتها علاجاً جراحيا ، وخلاف ذلك كان كل ما

نملكه لها إعطاؤها بعض الأدوية وإلزامها بالراحة ..

لم تكن مشكلة إجراء الجراحة مشكلة مادية بالدرجة الأولى ، فقد كان أهلها على درجة معقولة من اليسار المادى .. لكن المشكلة الحقيقية كانت تكمن فى خطورة إجراء هذه العملية فقبل ثلاثين عاماً مضت لم تكن جراحات القلب قد بلغت ما بلغته الآن من التقدم ..

وكان الذى يقدم على إجراء هذه العملية كالمقدم على الموت سواء بسواء فلم نكن ننصح أحد بإجراء عملية فى قلبه إلا الذى تكون حالته قد بلغت من السوء ما يجعل الأمل فى بقائه حيا دون محاولة جراحية لإنقاذه أملاً منعدماً ..

كانت حالة إلهام الصحية فى تدهور مستمر كما عرفت من التحاليل والفحوصات والتذاكر الطبية التى اطلعت عليها ..

رغم تدهور الحالة فقد لفتت إلهام نظرى بمعنوياتها المرتفعة ، روحها المشرقة ، ابتسامة الأمل المرتسمة دوماً على وجهها الشاحب .. كنت أراها تشد أزر أمها ، نبث الأمل فى نفس أبيها كلما ألمت بها أزمة حادة .. كانت تملك هذا النوع من التفاؤل الذى يوقن بأن كل ما تأتى به الأقدار خير .. وأن كل شدة مستخفة وتزول ولو بعد حين .. أن شمس الغد ستكون أكثر إشراقاً وتوهجاً .. وجدت نفسى انجذب بشدة إلى روح إلهام الحلوة .. لا كما ينجذب شاب إلى فتاة بل كما ينجذب المرء إلى نموذج إنسانى نبيل ..

مرت الشهور وحالة إلهام بين استقرار نسبى ، وأزمات حادة ، وفى

إحدى زياراتى وجدتها تقابلنى بوجه مشـرق والفرحة تثب وثباً من عينيها ، قالت وهى تناولنى مظروفاً ابيض صغيراً :

- "زفافى بعـد أسبوعين يسـعدنى للغاية لو شـرفتنى والسيـدة زوجتك بالحضور"

نظرت إليها مذهولاً ، ونقلت عينى بينها وبين والدتها التى ارتسم على وجهها القلق والتوتر وغمغمت :

- "زواجك ؟ لم أكن أعلم أنك مخطوبة"

ازدادت ابتسـامتها اتسـاعاً وقالت :

- "ألأننى لا أرتدى دبلة ؟ لم أكن بحـاجة إليـها ، فكل الأسـرة تعرف أننى وعصام خطيبان منذ طفولتنا"

- "عصام ؟"

- "نعم يا دكـتور ثروت .. عـصام ابـن عمى .. لا شـك أنك رأيتـه هنا مراراً"

رأيته فـى أغلـب المرات التى عدت إلهـام فيهـا ، وكنت أرى اللهـفة فى عينيه وهو يتبعنى فى كل مرة عقب انتهائى من فحصها فيوصلنى إلى الباب ويعود يسألنى عن تفاصيل حالتها فأردد له ما قلته أمام فراش إلهام .. كيف خـفى عنى أن هذا الاهتـمام العارم يخـفى وراءه حبـاً ؟ ولماذا ظننت أن اهتـمامه لا يعـدو أن يكون اهتـمام قريب بـقريبتـه المريضة ؟ ألأن إلـهام لا زالت دون العشرين ؟ أم لأننى كنت أعلم - كمـا يعلم كل أفراد أسرتها -

أن إلهام لا ينبغى لها أبداً أن تتزوج لأن الزواج سيمثل على قلبها العليل عبئاً ليس من المتوقع أن يتحمله .

وجدت نفسى أفقد أعصابى وأصيح بها وبأمها بلهفة طبيب على مريضته الغالية ..

- "ما هذا الجنون ؟ أى زواج هذا الذى تتحدثان عنه ؟"

قالت الأم باضطراب وعيناها تغرورقان بالدمع :

- "قل لها يا دكتور .. قل لها أنها تلقى بنفسها فى التهلكة"

وجهت كلامى إلى إلهام وأنا أجاهد للسيطرة على انفعالى :

- "ألا تعلمين يا إلهام بخطورة الزواج على حياتك ؟"

امتلأت عيناها الجميلتان بالدموع وقالت :

- "لكن عصام سيسافر فى عمل إلى الخارج وسيغيب أربع سنوات"

- "ليكن"

تساءلت بحزن :

- "هل تستطيع أن تضمن لى يا دكتور أن أعيش هذه السنوات الأربع إلى أن يعود ؟"

تململت فى مقعدى وتخلصت من حرج الموقف بدبلوماسية قائلاً :

- "لا أستطيع أن أضمن لنفسى يوماً واحداً على قيد الحياة .. الأعمار بيد الله يا إلهام"

فعاودها الإشراق والتفاؤل وابتسمت من بين دموعها قائلة :

- "حقاً .. الأعمار بيد الله .. ولئن عشت شهراً واحداً زوجة لعصام احب لديّ من أن أعيش أربعة أعوام بعيدة عنه" .

لم أستطع أن أرد عليها ، ولم يطاوعني قلبي أن أحطم حلمها .. وأقول لها إن العلم يقول والطب يؤكد أنها لو تزوجت فلن يتحمل قلبها هذا العبء وأنها ستموت في غضون أسابيع أو شهور ، وما جدوى أن أذكرها بحقيقة مؤلمة هي أعلم الناس بها .. وحتى لو حلت بينها وبين الزواج فما أدراني أنها قد تعيش شهراً آخر أو شهرين .. لعل الحزن والقهر يقتلانها .. وربما كان الموت حباً أفضل من الموت حزناً ..

وكأنها قد قرأت كل ما يدور في ذهني فقد رفعت إليّ عينيها الجميلتين وتساءلت باسمة :

- "أليس من الجائز أن يكون الحب والسعادة عوناً لي على المرض والموت ؟"

تساءل الدكتور حسن باهتمام :

- "وكم أسبوعاً أو شهراً عاشت بعد زواجها من ابن عمها ؟"

ابتسمت واستطردت :

- "لا أكتمك القول يا حسن .. إنني حين اصطحبت زوجتي التي كنت قد حدثتها كثيراً عن إلهام وروحها المتفائلة إلى حفل زفافها ، كنت موقناً أن هذه هي المرة الأخيرة التي سأرى فيها مريضتي الجميلة ذات القلب الكبير

الذى أصابه المرض فى مقتل منذ نعومة أظافرها وكانت الدموع تملأ عينى حزناً وإشفاقاً عليها ، وعلى فرحتها التى كنت أعلم يقيناً أن الموت سيقوضها فى غضون أشهر معدودات .

... تزوجت إلهام ، ورحلت مع حبيبها ، وانقطعت عنى أخبارها تماماً ، فلم أكن بقادر على الاتصال ببيت والدها للاطمئنان على حالتها خجلاً من ناحية وخوفاً من أن أسمع عنها خبراً يحزننى من ناحية أخرى .

إلى أن فوجئت بها أمامى فى عيادتى بعد مرور أربع سنوات .. ولعمرى لقد بدت فى عينى أكثر إشراقاً وأوفر صحة من يوم رحلت مع زوجها وابتدرتنى باسمة :

- "هل تذكرنى يا دكتور ثروت ؟"

وددت لو أقول لها إنها لم تغب عن بالى قط وإن سعادتى برؤيتها بخير لا توصف بيد أننى اختزلت فرحتى كلها فى بضعة كلمات فقلت مبتسماً :

- "أذكرك بالطبع يا مدام إلهام ، ويسعدنى أن أراك بخير"

ضحكت ضحكة صغيرة وهى تقول :

- "وهكذا ترى أننى قد نجوت من الموت الذى زعمتم يا معشر الأطباء أنه سيكون رديف زواجى"

فعدت أقول :

- "يسعدنى حقاً أن أجدك بخير"

- "جئت أستشيرك فى أمر يهمنى .. أنا أثق برأيك جداً كما تعلم .."

ثم صمتت لحظة مرت على وجهها خـلالها سحابة من القلق سرعان ما تبددت تحت أشعة ابتسامتها الدافئة وهى تقول :

- "أريد إجراء عملية توسيع الصمام"

قلت باهتمام :

- "قـد يكـون فـى إجـرائهـا تحسن كـبير فى حـالتك .. كمـا قد يكون فيها .."

وصمت قليـلاً أحاول انتقاء لفظ أقل قـسوة من كلمة "الموت" غيـر أنها تولت عنى إكمال الجـملة قائلة : "وقد يكون فيـها هلاكى .. أعلم .. هكذا كـان الحال بالنسـبة لـزواجى وبالنسبـة لكل يوم من عـمرى ، لو كنت قـد استـسلمت لكل احتـمالات الخطر التى حاصـرنى بها الأطبـاء منذ مولدى لكنت قد مت منذ سنوات طوال"

- "هل تشعرين بتعب أكثـر من المعتاد .. ؟ هل زادت حدة الأزمات أو قلّت المدة بين كل أزمة وأخرى ؟"

- "لا .. لا يا دكتور .. ليس من أجل هذا أريد إجراء العملية ... كل ما أردت أن أستشيرك فيه هو إمكانيـة إجرائها فى مصر .. فالحق أننى أكره أن أجـريهـا فى الخـارج ... وأريد أن أجـريهـا هنا وحـولى زوجى وأبى وأمى واخوتى .. وجودهم حولى يمنحنى من القوة ما يعيننى على الشفاء" .

صدقتها .. صدقت أن شعورها بوجود قلوب تحبها من حولها سيعينها على اجتياز كل مخاطر الجراحة ، وأن اطمئنانها النفسى وهدوءها الداخلى

لو تمت العملية فى مصر قد يكونا أكثر اهمية من تفوق الغرب علينا فى التكنيكات والآلات .. وجدت نفسى أطاوعها وأجرى لها عملية توسيع الصمام التى كان الكثير من الأطباء فى هذا الوقت يشفقون من إجرائها لأن احتمالات فشلها عالية .. لكن يبدو أن عدوى التفاؤل سرت إلىّ من روحها المشرقة فأقبلت على إجراء العملية لها وكلى أمل أن تنجح فتزيد فرصتها فى الحياة .

لم أسأل نفسى للحظة عما دفعها لاتخاذ قرار إجراء الجراحة ، ولا دار بذهنى قط أن نجاح العملية فى حد ذاته لم يكن بالنسبة لها غاية تصبو إليها بقدر ما كان وسيلة تسعى بها لتحقيق هدف آخر كانت تضمره فى نفسها ..

ولا أطيل عليك يا حسن يا ولدى ، فإن الله أكرمها ونجحت العملية وسط فرحة أهلها العارمة وانهمرت علىّ دعواتهم وشكرهم فانتشيت فخراً وسعادة .. وفى آخر يوم من أيام إقامتها فى المستشفى ذهبت إليها فى حجرتها لأفحصها مرة أخيرة قبل أن أصدق على إذن الخروج .. بدت سعيدة ومقبلة على الحياة كما عهدتها دائماً وربما أكثر ، فوددت لو أقول لها أن جزءاً كبيراً من نجاح العملية يعود إلى روحها العالية وإيمانها الطاغى بأنها ستشفى وتعيش .. لكن قبل أن أفتح فمى بكلمة بادرتنى متسائلة : "أتعتقد يا دكتور ثروت أنه بإمكانى أن أفكر فى الإنجاب الآن أم من الأسلم أن أنتظر بضعة أشهر قبل أن أحاول ؟"

حدقت فيها مذهولاً .. إن لم يكن هذا هو الجنون بعينه فماذا يكون ؟

امرأة ولدت والموت يحوم فوق رأسها ليل نهار .. زواجها معجزة ،

نجاح العملية التي خاضتها فضل كبير من الله .. ولكن أن تفكر في الإنجاب فهذا انتحار ..

- "... هذا أمر غير وارد إطلاقاً .. لا تحتمله صحتك"

- "سأكون أسعد الناس لو صار لي ولد من عصام"

- "هل يوافقك زوجك على هذا ؟"

أطرقت هنيهة قبل أن تقول ببطء : "عصام يخاف عليّ أكثر مما ينبغي .. لأنه يحبني كثيراً ومن أجل هذا .. من أجله .. أريد الإنجاب .. إنه يرفض الفكرة بالطبع ، ويغضب مني لو ذكرتها أمامه ويخاصمني أياماً ولكن فكر معي يا دكتور ثروت لو استطعت أن أنجب له طفلاً أو طفلة ، وعشت بعدها فسأكون أسعد الناس بأمومتي ، ولو انتهى أجلي أكون قد تركت له ذكرى مني.. تعزيه عن فقدي فلا يشعر بأن عمره وشبابه قد ضاعا مع امرأة عليلة، تفاجئها الأزمات كل حين وآخر، ثم رحلت عنه دون أن تهبه الولد .."

هززت رأسي سلباً وأنا أردد :

- "هذا انتحار .. هذا انتحار"

- "دعني أحاول"

- "أنا أرفض أن أشجعك على هذا الجنون .. فكل ما سقتيه من حجج يا سيدتي تبدو لي واهية فلا شئ في الدنيا سيعوض زوجك عنك . هذا على فرض أن قلبك تحمل عبء الحمل حتى نهايته .

عادت تكرر من بين دموعها :

- "دعنى أحاول ..."

قلت بحزم :

- "لو شجعتك فكأننى أقتلك .. يا إلهام إننى أحذرك .. لن تنجى من هذه التجربة لو حاولت أن تخوضيها"

سالت دموعها على خدها وهمست بعتاب :

- "دعنى أحلم على الأقل"

***

أتدرى يا د . حسن ؟ لقد حملت إلهام بالرغم من تحذيرى إياها فلما عاتبتها قالت باسمة :

- "الخوف من الموت شر من الموت نفسه .. إننى أحب أن أعيش حياتى بصورة طبيعية ما وسعنى .. أتدرى يا دكتور ؟ أننى لو استسلمت للمرض فسأزداد وهناً ولن يدرأ هذا الموت عنى " لعلها تكون صادقة يا حسن ... فالتعلق بحلم والأمل فى تحقيقه يعطى للحياة مذاقاً ، مهما بدا الحلم مستحيلاً والأمل بعيداً ... ولو فقد الإنسان كل أمانيه أو عجز عن التطلع للغد فهو كالميت سواء بسواء مهما طال به العمر .."

لقد كانت لإلهام تلك القدرة الفذة على التشبث بأحلامها .. حتى حلمها الأخير تشبثت به باستماتة .. كانت تمر علىّ فى العيادة كل أسبوع لأتابع حالة قلبها أثناء فترة الحمل .. كان يدهشنى أن الأمور تسير بصورة

أفضل مما توقعت .. العجيب أنها أتمت شهور الحمل التسعة بسلام والأعجب أنها وضعت طفلاً جميلاً ، لما نظرت فى وجهه عجبت كيف سولت لى نفسى يوماً أن أحرمها من حلمها الجميل ...

أتريد أن تعرف نهاية القصة يا حسن ؟

لقد جاءتنى إلهام منذ أيام .. تدعونى إلى حفل زفاف ابنها ..

***

فى اليوم التالى .. وبينما كنت أمر على مرضاى سمعت الدكتور حسن يخاطب الحاج رجب متسائلاً : "كيف حالك اليوم يا حاج رجب ؟"

رد الرجل بوهن :

- "تعبان والله يا دكتور"

وبطرف عينى لمحت د . حسن وهو يربت على كتف العجوز مشجعاً :

- "تبدو لى فى حال طيبة .. شد حيلك يا حاج رجب حتى تستطيع الحج فى العام القادم بإذن الله"

لمعت عينا الحاج رجب الخابيتان .. وأضاءت وجهه العجوز ابتسامة واهنة ..

■○■

الواجب .. أولاً

كنت أهم بالانصراف حين طرقت السكرتيرة باب حجرتى وقالت وهى تضع ثلاثة ملفات أمامى :

- "قرارات استلام العمل للأطباء الجدد" .

وقعت باسمى على القرارات الثلاثة وأنا أمر بعينى عليهم سريعاً ثم توقفت عند الورقة الثالثة أقرأ الاسم بتمعن ، ورفعت رأسى إلى السكرتيرة متسائلاً :

- "الدكتورة إيمان السيد على ؟ هل أنت متأكدة من الاسم يا مدام محاسن ؟"

ردت :

- "بالطبع يا دكتور حسن" .

- "طبيبة ؟ أمتأكدة أنت أنها طبيبة وليست طبيب ؟"

- "لقد رأيتها اليوم وتحدثت إليها "

قلت متبرماً :

- "وكأنه ليس لدينا ما يكفينا من المشاكل حتى ترسل لنا الوزارة طبيبة لقسم الجراحة .."

هززت رأسى متعجباً وأنا أتساءل :

- "ما شأن النسـاء بالجراحة ومتاعبها .."

- "أتود أن أستدعيهم لمقابلة حضرتك ؟"

- "لا .. لا .. سأراهم غـداً لدى موعد لإجـراء جراحـة فى مستـشفى الرجاء بعد ربع ساعة" .

- "أمرك يا دكتور"

- "فـقط أبلغـيـهم أننى أريدهم غـداً فى مكتـبى فى الشـامنة والنصف ، وأننى لا أقبل أية أعذار تبرر تأخير أحد الأطباء عن موعده" .

***

دلفت إلى المنزل وقد آذنت الشمس بالمغيب .. لـم يكن لدى سوى ساعة واحدة أتناول فيهـا طعامى وأبدل فيها ثيابى قبـل أن أتوجه إلى عيادتى التى أعمل بها حـتى ينتصف الليل وسأعود منهـا منهكاً ولكننى سعيد .. سـعيد لأننى سأخلد للنوم فى ثوان قـبل أن تتقاطر علىّ ذكريات الماضى وأشـباحه من كل صوب وحدب ، فتقض مضجعى ، وتذهب النوم عن عينى ..

جاءنى صوت أمى من حجرتها :

- "أهذا أنت يا حسـن ؟"

- "نعم يا أمى"

- "سأعد لك طعامك حالاً"

- "لا عليك سأعده بنفسى"

حوار كل يوم .. لا هى يطاوعها قلبها وتتركنى أعد طعامى بنفسى ، ولا أنا لدى من الطاقة ما يجعلنى أعده لنفسى فى الساعة الوحيدة التى أرتاح فيها خلال النهار .. لكنها جملة تعودت أن أقولها خجلاً من أمى التى تقوم على خدمتى وقد جاوزت السبعين من عمرها ..

- "آخر العنقود وستظل طفلى المدلل إلى آخر يوم فى عمرى"

أقبل يدها ممتناً وأنا أتمنى ألا تردف قولها بجملتها المعهودة ، غير أنها سرعان ما تقول :

- " وإن أردت أن تجعلنى أموت وأنا راضية عنك فتزوج يا ولدى تزوج.. إن بقيت لك اليوم لن أبقى لك غداً .. وإن رحلت .. فمن يعنى بأمرك وينظم لك شئونك ؟"

***

أتزوج ؟

بعد هذا العمر ؟

بعد كل الذى جرى ؟

ورنوت إلى صورة على مكتبى بأسى، أأتزوج غيرك يا "رباب" ؟ أتحل فى قلبى محلك امرأة سواك؟ تقول أمى إن السبل قد فرقت بيننا منذ عهد بعيد، وأن علىّ أن أنسى الماضى وأعيش أيامى متطلعاً إلى المستقبل .. أى مستقبل ؟ كل أيامى صارت سواء منذ افترقنا فما عاد فى القلب متسع لفرح ..

تطلعت إلى عينيهـا الواسعتين الباسمتين وشعـرها الفاحم المنسدل على كتـفيـها ، وجهـها الحبيب المزدان بغمـازتين طالما تغزلت فـيهـما .. وطالما انتظرت بزوغـهما من بين سـحب غضبـها وأنا أسـترضيـها وأقـبل يديها ، فتدعى أنـها لا تزال غاضبة مـستزيدة من تدليلى وقـبلاتى ، حتى تفضحها غمازتاها وهى تحاول جاهدة إخفاء ابتسامتها ، فأمسح برقة على خدها وأنا أتمتم بارتياح :

- "ها أنت قد سامحتنى فلا تدَّعى غير ذلك"

كم تحـاشيت النظر إلى الصـورة كى أجنب نفـسى عذاب الذكـريات ، قلبى لم يطاوعنى يومـاً على إخفاء الصـورة فى درج بعيـد أو خزانة .. يوم عـدت من عملى منذ سنوات طويلـة فلم أجد البـرواز فى مكانه انفجـرت حمم غـضبى حـتى صرت كالمجنون ، أعـادته إلى أمى رحمـة بى ، وكانت تزعم منذ دقائق قبلها أنها لا تعرف أين ذهب ..

اظنت أمى حقاً أننى سانسى رباب لو غابت عنى صورتها ؟

وكيف تصورت أننى قد أنساها .. رباب ملكت قلبى وحياتى منذ عهد الشباب الباكر ، وقعت أسير عذوبـتها وبراءتها منذ اللحظة التى التقت فيها عيناى بعينيها اللتين تحملان دهشة طفل يرى الدنيا لأول مرة ..

ما كان يدور بخلدى قط وأنا ألبى دعوة صديقى رمـزى للاستذكار معه أننى سأصير متيماً بحب شقيقته الصغرى رباب ، سـرعان ما تغاضيت عن كل مؤشرات الفـشل وغرقت سعيداً ومختـاراً فى بحر عشقـها ، لكن يبدو أنه الحب وما يفـعله بنا حين يدخل حياتنا دون سابق استـئذان .. تجاهلت

المقارنة الشاسعة بين فيلتهم الأنيقة تحيط بها أحواض الزهور ، وبين بيتنا المتواضع المحشور بين آلاف البيوت فى حى شعبى تحيط به أكداس القمامة، لم أتوقف طويلاً لأسأل نفسى إن كان والدها الأستاذ بقسم الجراحة بالكلية ووالدتها ذات الوظيفة المرموقة فى وزارة الخارجية سيوافقان على ارتباطها بى بابن عبد الحميد عوض الموظف المنسى بدرجته الخامسة منذ عشر سنوات ، والست نبوية التى تزوجت عقب حصولها على الإعدادية بشهور فاكتفت برعاية بيتها وأولادها وتركت التعليم غير آسفة .. ولا استرعى انتباهى أن ثيابها ليست جميلة فحسب بل هى باهظة الثمن وأغلبها مستورد من الخارج ، وطمس العشق على حواسى فخيل إلىّ أن عبيرها الأخاذ يفوح من شعرها دون أن تضع عطراً تساوى كل قطرة فيه جنيهات عدة .. وأنَّى لى أن أنتبه لتلك التوافه وقد غير حبها الأشكال والألوان من حولى فرأيت وسمعت ما طاب لى أن أراه وأسمعه وعميت عن كل ما عدا ذلك .

ويبدو أن رباب كانت تحمل طباعاً رومانسية حالمة جعلتها ترى الدنيا كما أراها ، فوقعنا فى الحب معاً ، وقد عمينا عن كل ما يمكن أن يعكر علينا صفو هوانا ..

إلى أن أفقنا على الواقع المرير ..

وكان لابد لنا يوماً أن نفيق .. فالحب لا يحتاج إلا لقلوب مخلصة ونفوس معطاءة .. ولكن الزواج يحتاج لأشياء أخرى كثيرة . كثيرة .. وقفت أمامها عاجزاً عجزاً مبيناً .. واصطدم حبنا بأبوين وجدا فىّ النموذج الحى لشاب استغل صداقته بابنهما للإيقاع بابنتهما بين براثن عواطفه

الكاذبة وهو يضمر فى أعماقه الغش والطمع ..

فشلت محاولات رباب لاستمالتهما بالتدلل عليهما تارة ، وبالتوسل إليهما تارة أخرى وبالإضراب عن الطعام تارة ثالثة .. لم تكن المسكينة تظن أن أبويها اللذين لم يردا لها طلباً منذ طفولتها يمكنهما أن يتشبثا بموقفهما بمثل هذا العناد ، فلما تقدمت إليها بالرغم من كل هذا طالباً يدها متعهداً لأبيها أن أحسن معاشرتها ولا أهينها أبدا ، وأن أنفق عليها بقدر ما يرزقنى الله من غير أن أضن عليها بشئ تسعه مقدرتى ، سخر منى سخرية مريرة لم يراع فيها كرامتى ولا مشاعرى ، أقسمت له أننى لا أريد منه سوى مباركته كى تكتمل لنا السعادة ، وقلت له إننى سأتكفل بكل شئ فى حدود إمكانياتى ، سنعيش معاً فى بيت أمى بعد أن خلا إلا منها إذ تزوج أخوتى الأربعة وتوفى والدى .. لكنه نظر إلى كمن ينظر إلى مجنون فقد إدراكه وحسن تقديره للأمور ، طردنى من البيت وهو ينعتنى بأقبح النعوت ، ولازلت إلى اليوم أشعر بالدماء تندفع إلى رأسى خجلاً كلما تذكرت الطريقة المهينة التى طردنى بها ، والتى لولاها لعلى ما كنت نجحت هذا النجاح الباهر فى مجال عملى ، فلقد أقسمت يومها بينى وبين نفسى لأصيرن أنجح منه وأكثر ثراء كى أجعله يعض بنان الندم أن رفضنى زوجاً لابنته ..

ولقد ندم أبو رباب فعلاً وندم بعد وقت أقصر مما قدرت بكثير ، ولكن ليس لأننى قد أصبحت طبيباً ناجحاً تطبق شهرته الآفاق فساءه أنه لم يزوجنى ابنته حين طلبتها .. بل لأن رباب عرفت كيف تجعله يندم ..

لا زلت أذكر صوتها حين أتاني ينساب عبر الهاتف ملهوفاً مخضلاً بالدمع :

- "سيزوجونني يا حسن من رجل لا أعرفه ولم أحبه .."

انشرخ قلبي حزناً وقهراً غير اني لم احر جواباً ، هتفت في لوعة :

- "لا تتركني يا حسن ، لو تزوجته سأموت كمداً ..."

انسابت دموعي صامتة وأنا أستشعر عجزاً يجثم على صدري ، يكاد يخنقني ، وددت لو كان باستطاعتي أن أخطفها وأطير بها إلى حيث لا يوجد إنسان وأستغني بها عن كل خلق الله ...

أردفت وصوتها يتكسر :

- "إنني .. إنني مستعدة أن .. أهرب معك ونتزوج .."

وجدت صوتي أخيراً ولكنه خرج مذبوحاً :

- "لا أستطيع أن أعينك على عصيان والديك يا حبيبتي . إن أعنتك عليهما اليوم ستكرهينى غداً من أجلهما .."

***

لم تعاود رباب الاتصال بي بعدها ، كأنها تجاهد نفسها بعد أن خذلتها في محاولة مستميتة منها لتقبل عريسها الذي فرض عليها قسراً .. أما أنا فكنت أتنسم أخبارها من شقيقها رمزي الذي ظل على مودته لي رغم ما حدث ، وصارحني أنه يضمر في نفسه تعاطفاً مع حبنا لكنه لا يجسر على الوقوف في وجه والده الذي أضاف إلى صرامته القديمة حدة في الطباع بعد

قصتى مع رباب ... وهو لا يريد أن يجلب على نفسه سخط والده فى أمر لا ترجى منه فائدة فطويت قلبى على جرحى والتفت لعملى أدفن فيه إحباطى وقهرى .. وظننت أننى قد روضت آلامى ، وقنعت من الماضى بذكرياته العذبة وبالصورة الوحيدة التى أهدتها لى حبيبتى ذات يوم لكننى اكتشفت كم كنت مخطئاً وأنا أرقب الأيام تمر وتقربها من يوم زفافها .. وقبيل فرحها بأيام سقطت مريضاً بحمى حار الأطباء فى معرفة سببها ، بينما عرفت أمى على ضحالة علمها مكمن علتى .. فلبثت إلى جانب فراشى تهوّن علىّ مصيبتى ودموعها تنساب صامتة على خدها ..

يوم زفافها استيقظت من نوم تخللته عشرات الكوابيس المفزعة وأنا أحس كأن فى صدرى دخاناً أسود يحرقنى بحرارته ويكتم أنفاسى بأبخرته... بضع ساعات وتصير رباب لغيرى إلى الأبد .. مالى لم أطاوعها على الهرب والزواج وليكن بعدها ما يكون ؟

سيطرت الفكرة المجنونة على رأسى المحموم فقمت أترنح تحت وطأة الحمى واليأس متخذاً طريقى إلى بيتها وقد صور لى جنونى لحظتها أن فى الساعات القليلة الباقية على زفافها متسع من الوقت لنا لننفذ اقتراحها السابق بالهرب والزواج ..

قطعت المسافة بين بيتى وبيتها وأنا لا أكاد أرى الطريق أمامى أو أشعر بشئ مما يدور حولى ، وقفت أمام باب الفيلا مضطرباً أروح وأجئ وقد عاد إلىّ رشدى فادركت فجأة أنه من غير المعقول أن أطرق بابهم وأطلب منهم أن يأتونى برباب لآخذها وأذهب ..

ثم عـاودني شئ من الجنون فـقـررت أن أنتظر أمام بـابها لعلـها تخـرج وحدها لشـأن من شئـون العرس ، لعلهـا تخرج لتـستلم ثوبهـا من الحائك مثلا، أو لعلهـا تذهب وحدها إلى مصفف الشعـر .. رغم يقيني أن والدتها ستصحبها دون شك ..

كنت أدرك سخف أفكاري بيد أن قدمي تسمرتا أمام باب فيلتها بإصرار لا معنى له .. وبينما أنا في موقفي علـى الطوار المقابل وبصري معلق بنافذة غرفتها إذا ببواب الفيـلا يلمحني وكان يعرفني بالطبع بحكم ترددي السابق عليهم ، اقترب مني بخطوات بطيئـة حتى وقف في مواجهتي ، فنظرت إليه بتحفـز متوقعاً أن يحـاول إقصائي عن المكان غير أنه رمـقني بنظرات غريبة تحمل الكثير من الشفقة والأسى ... لبث يحدق فيّ لبرهة ثم انسابت دموعه على وجهه المتغضن .

***

نعم ..

لقد ماتت رباب ..

ماتت قبيل زفافها بساعات ..

هل انتحرت ؟ هل مـاتت حباً ؟ هل رفض قلبها أن تكون لأحـد غيري فتـوقف عن النبض حزناً ؟ ولعـمري ، هل ساهمـت من حيث لا أدري في قتلها حين خذلتها ولم أقبل عرضها بالهرب والزواج فتركتها لقسوة الأهل، وجلافة رجل رضى بالزواج ممن لا تحبه ولا ترغب فيه ؟

لم أدر كيف مرت على الشهور التى تلت تلك المأساة ، لكننى أفقت لنفسى بعد سنوات فوجدتنى شابا على مشارف الثلاثين يحمل ملامح كهل وجدية عالم ، وصرامة رجل لا محل للهو والترفيه فى حياته ...

ادركت .. وكأنما فجأة .. أن البيت قد خلا إلا منى ومن أمى العجوز بعد أن تزوج اخوتى ومات أبى .. كنت قد بلغت مبلغاً لا بأس به من النجاح ، واصبت شيئاً من المال ، فانتقلت بأمى إلى شقة فسيحة فى حى أرقى وأنظف ، واشتريت سيارة صغيرة مستعملة ولكنها كانت تؤدى الغرض المرجو منها .. تنقلنى بين المستشفى الحكومى والمستشفى الخاص والمستوصف الخيرى الملحق بجامع قريب من بيتنا القديم وعيادتى الصغيرة التى افتتحتها فى مكان شعبى يعوض رخص أسعار العلاج فيه كثرة عدد المرضى .

وهكذا مضت أيامى فى عمل لا أفرغ منه إلا وأنا منهك الجسد حتى اننى كنت أنام أحياناً دون أن أبدل ملابسى من فرط التعب .. فلا أشعر بشئ حتى توقظنى أمى فى السادسة والنصف لأبدأ يوماً جديداً مشحوناً بتعب مبارك أحبه وأستزيد منه .. فما أجمل أن ينشغل عقلى بالعمل نهاراً ليطمس عليه التعب ليلاً فلا أعود بقادر على التفكير فى شئ ولا الإحساس بشئ ، ولا تعود الذكريات تقضى مضجعى .

ازداد ثرائى ... بدلت سيارتى المستعملة بأخرى فاخرة وانتقلت مع أمى إلى بيت أجمل وأرحب أنفقت عليها وعلى إخوتى وأبنائهم ، فلم تكن بى حاجة شخصية إلى المال ، ولا كانت نفسى تواقه إلى الملابس الثمينة أو

المآكل الفاخرة .. أنفقت على غيرى بسخاء وكأننى لا أطيق أن أمتلك مبلغاً طائلاً من المال ، إذ كـانت الأموال حين تتكدس فـى البنك تبعث فى نفسـى سـؤالاً يعـذبنى ويورثنى القلق : ها أنا قـد صـرت ذا ثراء عريـض وشهـرة واسعة فمـا كان يضير والد رباب لو صبر علىّ فى مسـتهل حياتى وزوجنى ابنتـه ؟ ألم يكن كل هذا النعـيم والثراء سـيصـير إلى من رضت بى فـقيـراً فصنتها غنياً ؟ ألا يستشعر والدها ندماً على ما فعله بنا ؟

ألا ينفطر قلبه كل ليلة - مثلى - حزناً على الراحلة الغالية ؟

***

قلت وأنا أرمق الساعة المعلقة فى مواجهة مكتبى :

- "استدعى الأطباء الجدد لمقابلتى يا مدام محاسن "

تململت السكرتيرة فى حرج واضح وهى تقول :

- "ألا آمر لسيادتك بالشاى أولاً" ..

عاتبتها بنظرة مؤنبة وقلت مشيراً إلى الساعة المعلقة :

- "حان موعدهم .. والشاى يمكنه أن ينتظر"

تلجلجت قائلة :

- "الحقيقة يا دكتور .. الحقيقة أن الدكتور على والدكتورة إيمان لم يصلا بعد .. لا يوجد سوى الدكتور أحمد" ..

قلت بغضب :

- "إذن فـاستـدعيـه .. ولنرى مـاذا يكون بشـأن الآخرين" لم أكـد أبدأ

حديثى مع الطبيب الشاب حتى سمعت طرقاً ملهوفاً على الباب دخل شاب آخر قدم نفسه على أنه الدكتور على زيدان فزمجرت فى وجهه مؤنباً:

- "أظن أن مدام محاسن أبلغتك رسالتى بعدم التأخير" قال بحرارة :

"أقسم لك يا دكتور أننى قد فعلت كل ما فى وسعى لأصل فى الموعد لكننى أسكن فى حلوان ، ولا أمتلك سيارة ، والمواصلات اليوم كانت غاية فى الصعوبة و .."

قاطعته بحدة :

- "هل تنوى أن تقص علىّ قصة حياتك ؟ من المفترض أن أحولك حالاً إلى التحقيق" .

فغر فاه بذهول وهو يتمتم :

- "تأخرت خمس دقائق فحسب .."

قلت بصرامة يعرفها عنى زملائى :

- "التأخير تأخير .. والدقائق الخمس ... يا دكتور قد تكون الفيصل بين حياة إنسان أو موته، وأنت جراح، وذلك يحتم عليك أن تقدس الوقت .."

هَمَّ بالاعتراض غير أن نظرة منه إلى وجهى الصارم أخرسته ، غضّ بصره ، واحمر وجهه خجلاً ... او غيظاً بيد أنى لم أهتم وأكملت حديثى :

- "إعلم أن التقصير البسيط إذا ما تغاضينا عنه فإنه يستشرى ويستفحل ويصبح مأساة حقيقية .. أقول لك هذا لتعلم أننى لا اتقبل أية أعذار عن أدنى إهمال يقع من أحد الأطباء .."

- "نعم يا سيدى .."

وبدأت أشرح للطبيبين المهام المنوطة بهما حين طرق الباب مرة أخرى .. نظرت صوبه أنتظر دخول الطبيبة الشابة التى جنت على نفسها بإعطائى أسوأ انطباع عنها فى أول يوم عمل لها ..

انفرج الباب عن شابة رشيقة قد جمعت شعرها الحالك خلف ظهرها فلم تترك خصلة واحدة منه تنسدل على جبينها .. ابتدرتها بحدة : كم الساعة الآن يا دكتورة ؟"

سارعت تعتذر بإخلاص وأنفاسها اللاهثة تتلاحق :

- "أعتذر بشدة يا دكتور فإن والدتى .."

صحت بها وأنا أخبط المكتب أمامى بشدة :

- "لا أقبل أية أعذار يا دكتورة .."

قطعت المسافة بين الباب ومكتبى فنظرت إليها بحدة وأنا أهم بإعطائها درساً قاسياً فى أصول الانضباط قبل أن أحولها للتحقيق أسوة بزميلها ، لكن الكلمات تكسرت على شفتى وأنا أرى ملامحها عن قرب .. يا إلهى ، ماذا أرى ؟ غمازتا رباب .. ليس فى العالم كلّه غمازتان بهذا الجمال سوى غمازتا رباب .. وتكفلت مشاعر دفينة فى القلب بإكمال الصورة فرأيت وجه رباب فى وجه هذه الطبيبة الواقفة أمامى والرجاء والخوف يلقيان بسحابة من الأسى على وجهها الجميل .. خفق قلبى خفقات متالية موجعة حتى كدت آمرهم جميعاً بالانصراف ريثما أتمالك نفسى .. لكننى آثرت

التظاهر بالتماسك - غير أن الكلمات خانتني فخرجت من فمي ذائبة في دفقة حنان جارف انبعث من أعماق الماضي الحبيب :

- "أرجو أن تلتزمي بمواعيد العمل يا دكتورة .. لن أحولك هذه المرة للتحقيق ... أعني لن أحولكما للتحقيق .. وسأكتفي بتوجيه انتباهكما إلى ضرورة الالتزام والجدية في العمل" .

أشرقت الابتسامة على وجهها الجميل فلمعت غمازتاها تشيان برضاها .. رفرف قلبي بين جوانحي متمرداً على سجن الضلوع كأنما عادت إليه الحياة من جديد .

ها هي حبيبة العمر تبعث إليه من أحضان الماضي السحيق على الهيئة التي أحببها نفس الشباب ونفس الرونق ... عشرون عاماً مرت علينا لم تطبع على وجهها بصمات الزمن ، كيف يا ترى نجا شعرها الحالك من المشيب وقوامها الممشوق من الترهل ؟ رباه .. ما هذا الهذيان ؟

الأولى كانت رباب .. وهذه إيمان .. فما لي أخلط بينهما حتى لأكاد أصدق أن رباب قد بعثت للحياة حقاً .. أيا كانت الحقيقة فمن المؤكد أن القلب الصوان قد لان لمرأى شبيهة رباب وأن عملي في المستشفى الحكومي قد بدا فجأة أكثر جاذبية عن ذي قبل .."

***

لا ..

لم تكن المشاعر الدافئة التي بعثتها في نفسي رؤيتي لإيمان انبهار مؤقت

بالشبه المذهل بينها وبين رباب ، بل كان لرؤيتى لها كل يوم فعل السحر فى نفسى وحياتى ورويداً رويداً بدأت أتعلم كيف ابتسم وكيف أضحك .. مع مضى الأسابيع والشهور بدأت عيناى تدركان مرة ثانية أن فى الدنيا ألواناً أخرى غير الرمادى والأسود .. بدأ لسانى يتعرف من جديد على مذاق الأشياء . يوماً طلبت من أمى أن تعد لى نوعاً محدداً من الطعام اشتهته نفسى فدمعت عيناها فرحاً ، تمتمت بصوت خفيض كأنها تخشى على فرحتى من الكلمات :

- "الحمد لله .. قلبى كان يشعر أن شيئاً قد تغير فيك للأفضل يا ولدى.. يارب أتم عليه فرحته وسعادته .. يا رب مد فى عمرى حتى أراه سعيداً وسط أولاده .. يارب .."

قربتها منى .. اصطفيتها لنفسى .. جعلتها مساعدتى فى كل العمليات الجراحية التى كنت أجريها .. صارت تلميذتى وساعدى الأيمن .. فرحت هى باهتمامى بها .. بالفرصة النادرة التى أمنحتها لها لتتعلم منى وتستفيد من خبرتى وأنا الجراح الماهر الذى يتنافس الأطباء الشبان لمتابعة العمليات التى اجريها . ويوماً قالت لى باسمة وقد أزالت الألفة الكثير من الحواجز بيننا :

- "إننى أجدك لين الطباع وودوداً جداً يا دكتور حسن .. لست أدرى لم أعطونى عنك صورة مخالفة تماماً للواقع يوم جئت أستلم العمل هنا" .

لم أدر ماذا أقول لها .. هل أخبرها أنهم ما كذبوها حين رسموا لى صورة مفرطة فى الجد والصرامة ؟ هل أعترف لها أنها جعلتنى إنساناً آخر ، أو بالأحرى ردتنى إلى طباعى الأولى التى شوهتها المأساة فأصبحت قادرا

مرة أخرى على الضحك والحب والاشتياق ؟

حدقت فى وجهها الحبيب ، رمقت غمازتيها بحنان وأنا أتساءل كيف ومتى أستطيع أن أبوح لها بحبى ؟ لكن هل أحببت إيمان حقاً ؟ .. هل نسيت رباب ؟

الحق أننى لم أعد أجد فارقاً بينهما .. إن رباب وإيمان اسمان لامرأة واحدة ..

كنت أرى إيمان فكأننى وجهاً لوجه أمام رباب ، وكأن المعجزة قد وقعت وقامت رباب الجميلة من مرقدها تمسح على جروحى بيدها الحانية .. تضمنى إلى صدرها لتهدئ من روعى وتمحو حزنى .. تقول لى إن كل شئ على ما يرام .. وأنها بخير والدليل أنها أمامى بلحمها وشحمها ..

أعود إلى البيت فأبتسم لصورة رباب فى إطارها المذهب ، أعاتبها لتبسطها فى الحديث مع زملاء العمل .. أعلم أنها نقية السريرة ، حسنة الطوية لكن أنّى لها أن تعرف ما فى ضمائر هؤلاء الرجال الذين تحادثهم .. أنّى لها أن تستشعر لذع الغيرة وهى الجميلة اللاهية ذات القلب المتفتح للحياة ..

ابتسم للصورة معاتباً :

- "لم تتغيرى يا رباب .. بعد أكثر من عشرين عاماً لا زلت كما كنت أتذكرين يا غالية كم أشعلت الغيرة نار الخلافات بيننا ؟ كنت أعشقك وكأن قلبى يدرك عظم الفارق بيننا فكان يدخل الخوف فى نفسى كلما

رأيتك تتبسطين فى الحديث مع شاب خشية أن يتحول قلبك عنى .. وها أنت تفعلين معى نفس الشئ مرة ثانية بعد كل هذه السنوات" ..

لم تكد تمضى شهور حتى غرقت فى حب إيمان حتى أذناى . آمنت أنها هدية القدر إلىّ بعد أن تعذبت فى حياتى وحبى ، وأية هدية أغلى من أن تعود إلىّ الحبيبة الغالية بعد كل هذا الغياب ؟

ولم يعد أمامى سوى انتهاز الفرصة المناسبة لأفاتحها فى الأمر .. كنت أستشعر المودة التى تكنها لى وكنت أرى الفرحة التى ترتسم فى عينيها وعلى شفتيها حين ترانى كل صباح ، ...... ، لكن عقلها قد يتخذ منى موقفاً متحفظاً بالنظر إلى فارق السن الكبير بيننا .

... كم عمرها بالضبط يا ترى ؟ متى تحين ذكرى يوم ميلادها ؟ تلك أفضل مناسبة أستطيع أن أفاتحها فيها بما يعتمل فى نفسى .. هدية لائقة ، وعشاء فى مكان رومانسى حالم .. وعلى النظرات واللمسات والكلمات باقى المهمة الصعبة .

طلبت من السكرتيرة بيانات متعددة عن الأطباء الثلاثة ضمنها تواريخ الميلاد .

بعد ساعة عادت السكرتيرة بما طلبته .. جرت عينى على السطور بسرعة .. عيد ميلادها فى شهر سبتمبر .. نحن لم نزل بعد فى أوائل شهر مارس .. كيف يطاوعنى قلبى الذى انتظر السعادة لأكثر من ربع قرن على الانتظار ستة أشهر ، ماذا أفعل لو بعث طول الانتظار اليأس فى نفسها ، فاستجابت لأى نداء آخر بالحب والزواج ؟

لا لن أجعل رباب تضيع منى مرة أخرى .. لن أخسر حبى ثانية ثمناً لترددى .

***

كان الجو صحواً فى ذلك اليوم من أيام شهر مارس .. ، لسعة برد خفيفة بعثت فى نفسى الانتعاش وأمدتنى بالنشاط .. رنوت لصورة الحبيبة الغالية مبتسماً وتمتمت :

- "اليوم .. اليوم يا رباب ستتحقق أحلامنا .."

ارتديت أفضل بذلة لدى ، عقدت ربطة عنقى الجديدة بعناية وتعطرت بعطر أهداه لى شقيقى يوم عيد ميلادى منذ عامين فما عنيت بفتح العلبة يومها .. أما اليوم فكل شئ يبدو جميلاً وجديداً وجديراً بالتأنق ..

- "كل سنة وانت طيب يا حسن يا بنى .. عقبال مائة سنة"

بهذا ابتدرتنى أمى وهى تناولنى فنجان الشاى الذى أحتسيه كل صباح على عجل ثم أضافت وابتسامتها الحانية تشع بالطيبة :

- "السنة القادمة بإذن الله تكون زوجتك إلى جوارك .."

لأول مرة منذ ربع قرن أبتسم وأنا أستمع لمثل هذه الدعوة ، فأغضيت خجلاً وكأننى مراهق يعرف الحب لأول مرة وتمتمت بصوت هامس :

- "بإذن الله يا أمى ..."

فأشرق كل شئ فيها وهللت وهى تكاد تبكى :

- "أحقاً ما تقول يا ولدى ؟"

قلت برجاء :

- "دعواتك يا أمي .."

***

ما إن وصلت إلى المستشفى ، وجلست على مكتبى حتى مددت يدى أتحسس ربطة عنقى وأتأكد من أنها محكمة العقد ، مررت بيمناى سريعاً على شعرى ، كأننى أرتكب إثماً ..

حاولت أن أستعيد الكلمات التى أعددتها منذ الأمس لأفاتح بها حبيبتى بشأن ارتباطى بها . حين طرق الباب ودلفت إيمان إلى الحجرة .. توقفت برهة تحدّق فىّ باهتمام ثم لمعت ابتسامتها مصحوبة بغمازتيها الحبيبتين وقالت :

- "إنها المرة الأولى التى أراك فيها دون البالطو الأبيض يا دكتور حسن...؟"

قلت مداعباً :

- "وكيف وجدتنى ....؟"

تضرج وجهها خجلاً وأغضت ..... ، اجتاحتنى رغبة قوية فى تقبيل وجنتيها الموردتين ، نظرت إليها بحنان ... هل من الأنسب أن أفاتحها فى أمر ارتباطنا الآن أم أنتظر حتى يحين موعد الانصراف فأدعوها إلى الغداء فى مكان هادئ يلائم الموقف ..

بينما أنا غارق فى تفكيرى إذا بها ترفع عينيها وتقول بصوت يشوبه

شيء من الاضطراب :

- "هل أطمع يا دكتور حسن أن أقتطع من وقتك الثمين ساعتين بعد ظهر اليوم"

عمرى كله يا غالية

- "هل هناك خدمة يمكننى أن أؤديها لك يا دكتورة إيمان ؟"

- "إنها ليست خدمة ، بل هو شرف توليني إياه"

نظرت إليها متعجباً متسائلاً ، أوضحت :

- "اليوم هو عيد ميلاد أحبّ إنسان إلىّ فى الوجود"

خفق قلبى بجنون معربداً فى صدرى .. ما أروع ما أسمع .. أكاد لا أصدق أذنى ، هل فاض الحب بها كما فاض بى ، وفكّرت كما فكرت أن تلمّح لى بحبها ؟ هل حقاً كلّفت نفسها مشقة وحرج السؤال عن تاريخ ميلادى لتختلق مناسبة تستطيع فيها أن تبوح لى - ولو بالإشارة المسترة عن مدى إعزازها لى ؟

يا لها من فتاة رقيقة المشاعر .. وما أشد حمقى وقسونى أن استسلمت لتخوّفى من مصارحتها لأشهر طوال حتى اضطررتها لحرج التلميح لى بمشاعرها بدلاً من أن آخذ أنا بزمام المبادرة ..

قلت وصوتى يرتعش من التأثر :

- "أنت .. تخجليننى برقتك"

- "هل ستستطيع الحضور يا دكتور حسن ؟"

- "لا يوجد فى الدنيا كلها أهم من هذا الموعد"

فتورد وجهها وقالت :

- "اشكرك على كرمك . سيُسَر كل الزملاء لتشريفك"

كل الزملاء ؟

تساءلت بحيرة :

- "وما شأن «الزملاء» بهذا ... ؟"

- "الحقيقة يا دكتور حسن أن هذه هى المرة الأولى التى أقيم فيها لتامر حفلاً بمناسبة عبد ميلاده رغم أنه قد بلغ الثالثة من عمره ، فرايت أن أدعو زملائى فى العمل .. ، وأدعو سيادتك فإن أفضالك علىّ كثيرة جداً ، لقد تعلّمت على يديك الكثير .. ومن فرط ما حدّثت مصطفى زوجى عنك فإنه ..."

تحطمت الأحلام تحت الضربة القاصمة فسمعت لها دوياً مفزعاً ....

تساءلت بصوت مبحوح :

- "مصطفى زوجك .... ؟"

فابتسمت وأوضحت :

- "إنه مهندس ، ولكنه يهتم بعملى كثيراً ، ومن كثرة حديثى عن أفضالك علىّ يا دكتور حسن فقد فكر جدياً فى الحضور إلى المستشفى ليشكرك بنفسه أن أتحت لى فرصة عظيمة للتعلم" .

ماتت رباب ..

نفس الألم .. ونفس الشعور بالقهر والعجز ..

هل حكم على الا أعرف للسعادة طعماً فى هذه الدنيا ؟

سحقت يد الألم قلبى فتفتت ، عاد إلىّ الحزن فاتحاً ذراعيه ، لفنى فشعرت بين أحضانه بيأس مريع ، تمنيت الموت صادقاً فأغمضت عينى أنتظره .. انتزعنى صوتها من دوامة العذاب وكأنه آت من واد سحيق :

- "دكتور حسن .. دكتور حسن .. هل أصابك شئ ؟ دكتور حسن"

همست بصوت لا أدرى كيف سمعته :

- "أنا بخير يا دكتورة ، دوخة بسيطة تعاودنى من الحين للآخر بسبب الإرهاق"

نظرت إليها وحزن الدنيا يسكن عينى ، رسمت على وجهى ابتسامة كالبكاء وأنا أتساءل :

- "لم أكن أعلم أنك متزوجة .. تبدين صغيرة جداً .. كما أننى لم ألمح فى يدك خاتم زواج ..."

ضحكت مطلقة العنان لغمازتيها لتتراقصا على وجنتيها وقالت :

- "لأن مصطفى ابن عمى ، وكان معروفاً فى العائلة منذ طفولتنا أننا سنتزوج ومل مصطفى الانتظار فتزوجنا وأنا فى الصف الخامس .. أما الدبلة فقد قيل لى يوم جئت لاستلام العمل إن سيادتك صارم جداً ، وإنك تعاقب بشدة أى جراح يرتدى خاتماً فى يده لأنه بهذا يخالف أبسط قواعد التعقيم وأن من أقوالك المأثورة إنه تحت كل خاتم توجد مستعمرات من

الميكروبات ، فآثرت السلامة وخلعت دبلة الزواج ، وجمعت شعرى كله وربطته خلف رأسى كما تأمر الممرضات ... وحرصت أن ألتزم فى عملى كى لا يقول أحد إن النساء لم يخلقن للعمل بالجراحة ..."

قلت بصوت ذبحه الألم :

- "ولقد نجحت يا دكتورة .. تهنئتى القلبية ....."

لست أدرى كم من الوقت مرّ علىّ وأنا جالس فى مقعدى بلا حراك .. مشلول التفكير والأحاسيس والإرادة ... حين اندفعت الحكيمة نعمات كالقذيفة من الباب وهى تقول :

- "الدكتور فوزى يبلّغ حضرتك أن هناك مصاباً فى الاستقبال عنده نزيف داخلى فى البطن وقد علّق له المحاليل .. وأخذ له عينة دم ... وينتظرك لإجراء العملية ..."

حدقت فيها دون أن أراها ... شعرت أننى لا أفقه كلمة واحدة ممّا تقول .. ماذا بقى لى فى الدنيا لأتمسك بالحياة ...؟ أى معنى لوجودى ولأيامى القادمة ؟ نظرت إلىّ الحكيمة بتمعن ثم هتفت :

- "..... تبدو مريضاً للغاية يا دكتور حسن"

أشرت لها بيدى نافياً ثم قمت مستنداً على مقعدى ومكتبى ... قائلاً :

- "جهزى حجرة العمليات وسأحضر فوراً ..."

انصرفت الحكيمة نعمات على عجل ...

حللت أزرار بذلتى الأنيقة ... علقتها على الشماعة . ارتديت معطفى الأبيض ...

اعترضنى صوت الدكتورة إيمان :

- "دكتور حسن .. تبدو متعباً حقاً ..."

- "واجبى ....."

- "كيف يمكنك إجراء العملية وأنت فى هذه الحالة ..... فكّر فى صحتك ..."

خطوات العملية الجراحية تتواتر فى ذهنى بسرعة البرق .... قلت :

- "الواجب يأتى قبل صحتى يا دكتورة .. الواجب أولاً ..."

خيل إلىّ أن بصيصاً خافتاً من الضوء ينير أيامى القادمة .. رغم كل شئ .. رغم كل شئ .

خمارويه

ربما كـان لنشـأتـى فى حى الحـسين أبلغ الأثر فى حـبـى الشـديد للآثار وبالذات الآثار الإسـلاميـة وأذكر أننى فى صـباى البـاكر كنت أنفـق الجزء الأكبـر من مصـروفى فى شـراء الكتب التى تسهب فى الحـديث عن الآثار الإسلاميـة وترفق ما تكتبـه عنها بصور كنت أقضى الـساعات أحدق فـيها وأتملاها بإعجاب رغم رداءة طباعتها .... فلمـا جاوزت الثانية عشرة سمح لى أبى بالخـروج إلى أماكن أبعـد من الشـوارع المحيطة ببيتنا .. فـحقـقـت أحـلام طفولتى وصـبـاى البـاكـر وزرت كل الأماكـن الإسلامـية المتـاح لى زيارتهـا فى القاهرة وأكـثـرت من التردد على المسـاجـد أتملى روعة بنائهـا وجمـال زخرفـتها حـتى قرت عين أبى بى ، وتـاه بى بين أقرانه فخـراً على اعتبـار أن ابنه صبى صالح متـدين على حداثته ، لا يكاد يغادر مـسجداً إلا ليدخل غـيره .. ولم أكن لأجرؤ على الاعتـراف له بالسبب الحقيـقى لتعلق قلبى بالمسـاجـد خـوفـاً من أن يـنقلب رضـاه عنى سـخـطاً ، لا لمجـرد أنه سيكتشف أننى لـست على تلك الدرجة العاليـة من التدين التى يتوسمها فىّ فحسب ، ولكن أيضـاً لأنه كان يريدنى أن أصير طبيباً ، ولـم يكن ليتصور أو ليرضى أن يحـول أى شئ فى الدنيا كلها بينه وبين تحقـيق حلمه هذا ، لا ميولى ولا رغباتى ولا حتى مجموعى فى الثانوية العامة ومنذ كنت طالباً فى الابتدائية وأنا أسمعه يردد علىّ :

- "أنت ابنى الوحيد يا مـحمد .. ويجب أن تصبح طبـيباً .. كنت أتمنى

دوماً أن يصير ابنى طبيباً فاستذكر دروسك جيداً منذ الآن ، لكى تصبح قوياً فى كل العلوم منذ صغرك فلا تضطر لإعادة الثانوية العامة أكثر من مرة حتى تحصل على المجموع الذى يؤهلك للالتحاق بكلية الطب"

إلى هذا الحد كان حلم التحاقى بكلية الطب متمكناً من أبى .. إلى الحد الذى كان لا يتردد معه فى إجبارى على إعادة الثانوية العامة مرة بعد مرة حتى أحصل على المجموع المطلوب .. فكان من العبث أن أحدثه عن ولعى بالآثار وأملى فى أن ألتحق بكلية الآثار أو معهد السياحة لأعرف المزيد عنها .. وأنّى لى أن أفعل هذا وهو الذى كان يعد أى شئ فى الدنيا خلا الاستذكار والتعبد مضيعة للوقت وعبثاً لا طائل منه ..

على أننى مارست هوايتى فى معرفة كل شئ عن الآثار بقراءة الكتب خلسة .. كما أشبعت رغبتى فى العمل مرشداً سياحياً عن طريق أختى الوحيدة فوزية .. وكانت فوزية تصغرنى بخمس سنوات فكنت أصحبها معى فى الاجازات زاعماً أننى سأذهب معها لتلهو قليلاً فى الحديقة المجاورة ، وأننى سأبقى معها لأحميها وأحرسها ، ونذهب ودعوات أمى لى بالسعادة والنجاح تلاحقنى لأننى ولد بار بأختى ، حتى أننى أقتطع من وقت نزهتى مع أصدقائى لأصحبها إلى المتنزهات وأحميها من المضايقات.. ما أن نصير فى الشارع حتى أسوق أختى الصغيرة سوقاً إلى القلعة أو أحد المساجد القريبة فلا ندخلها ، بل أروح أحكى لها كل ما قرأته عن تاريخ بنائها والأحداث التى واكبت تشييدها ، وأوجه نظرها إلى روعة البناء، أشير إليها عبر باب الجامع أن تطل برأسها لترى الزخارف التى تزين

حوائطه من الداخل ، وهى تـتململ فى ضيق واضح ، وتروح تهـددنى أنها ستـبوح لوالدينا بأمرى ، فـلا تسكت حتى أرشوها بـقطعة حلوى مما تحب، وأعدها أننى سـأقوم عنها بحل واجب الحسـاب ورسم خرائط الجغرافـيا .. ولا بأس بالقيـام عنها بحل قواعد الـنحو فى مقابل سكوتهـا وموافقتـها أن تقوم مرة أخـرى بدور السائحة التى تستـمع بشغف إلى المعلومات الشـيقة التى يقدمها لها مرشدها السياحى ..

لما حـصلت عل الثانوية العـامة بمجـموع كـبيـر بكى أبى من الفـرحة ، وسقى أهـل الشـارع كله شـربات الـورد حـلاوة نجـاح "الدكـتـور" محمد - باعتـبار ما سـيكون - جبنت أمام فـرحته العارمـة أن أصدمه برغـبتى فى الالتحاق بكلية الآثار ، أو حتى أن أوجـه نظره بلطف إلى مفردات درجاتى التى تشى بوضوح إلى أن الفضل فى تحليق مجمـوعى فى سماء التسعينات هو نبوغى فى الرياضيات والفيـزياء ، وتفوقى الواضح فى اللغات الثلاث ، وتوضح لكل ذى عين بصـيرة أننـى نجحت فى مـادة الأحيـاء بفضل دعـاء الوالدين ليس إلا ، وأننى لهذا لست مؤهلاً بالمرة لدراسة المواد الطبية ..

ورغم كل هذا فقـد التحقت بكليـة الطب دون مقاومـة تذكر ، ربما لأن أبى قد غرس فى عقلى منذ حداثتى أننى يجب أن أصـير طبيباً ، وربما لأننى انتشيت بالمجمـوع الكبير وأردت أن أضـيف لاختـيالى به لقبـاً رناناً يكون مصدر فخر واعتزاز لى العمر كله .. لقب طبيب .

غير أن عاملاً ثالثاً حـسم ترددى وجعلنى أكثر تقبلاً لفكرة التحاقى بكلية الطب ألا وهو التحـاق صديق طفـولتى وصباى "عـادل" بها فشـعرت أننى

أكثر قدرة على تحملها ، وأكثر استعداداً لبذل الجهد من أجل استيعاب علومها ..

وهكذا صرت طبيباً ..

كنت أنجح عادة بتقدير مقبول ونادراً بتقدير جيد ، أما عادل كان دائماً ينجح بتقدير جيد جداً وأحياناً بامتياز ، لكن النتيجة فى النهاية كانت فى نظرى واحدة .. وهى أننا تخرجنا فى يوم واحد وصار كلا منا يحمل لقب طبيب ...

بفضل وساطة خال عادل .. وكان ذا منصب هام فى وزارة الصحة تم إلحاقى بنفس المستشفى التى التحق بها عادل بحى الخليفة لنمضى سوياً سنة التدريب العملى - سنة الامتياز - كان كلا منا يحمل للآخر فى قلبه مشاعر ود ومحبة ، وكنا نستمتع بصحبة أحدنا للآخر ، ولا يطيب لأحد منا أن يفعل شيئاً فى غياب صديقه .. ولم يكن يعيب عادل فى نظرى سوى شدة انكبابه على العلم وحبه للعمل إلى الدرجة التى كان لا يجد معها وقتاً ليمارس هواية تلائمه ، كما أنه لم يكن ذا اهتمام بالتاريخ أو الآثار ، وعبثاً حاولت أن أثير اهتمامه بهما منذ عهد الطفولة فلم أفلح أبداً ..

ولأن سنة الامتياز هى سنة هامة فى حياة كل طبيب إذ ستؤهله عن طريق التدريب العملى المكثف تحت إشراف أساتذته للإلمام العملى بمختلف فروع الطب ، وبهذا يصبح قادراً عند انتهائها على اختيار أكثر التخصصات توافقاً مع ميوله ، فقد اهتم عادل بالاستفادة منها إلى أقصى درجة ممكنة فلا

يكاد يترك طبيباً أكبر منه إلا ولازمه كظله وهو يفحص المرضى فى محاولة لاكتساب أكبر قدر ممكن من الخبرات .

أما أنا ، فلأن سنة الامتياز هذه لا يعقبها أية اختبارات عملية أو نظرية فقد عملت أنا أيضاً على الاستفادة منها إلى أقصى درجة ممكنة فى قراءة المزيد من كتب التاريخ والآثار .. وزيارة الأماكن الأثرية كلما أتيحت لى الفرصة .. لا سيما وأن المستشفى الحكومى الذى استلمت عملى به بحى الخليفة كان يقع بين عشرات المساجد الأثرية ذات الطراز الإسلامى القديم لكن عادل لم يكن ليتركنى أستمتع بعشقى الكبير .. فكان لا يفتأ يحثنى على الاستفادة العملية من سنة الامتياز ، ولا زلت أذكر أيام كنا نقضى تدريبنا فى قسم الجراحة بالمستشفى ، وكنت قد انتهزت فرصة الهدوء النسبى الذى ساد المستشفى عصراً فانزويت فى استراحة الأطباء أطالع بشغف كتاب جديد اشتريته قبل أيام ، وإذا بعادل يقتحم علىّ خلوتى كالقذيفة وهو يهتف :

- "أين اختفيت يا محمد ؟ ألا تعلم أن اليوم هو يوم إشراف الدكتور عبيد ؟ وأنه لا يحب أن يجد أحد الأطباء جالساً بلا عمل ؟"

وقع بصره على الكتاب الذى كنت أحاول مداراته عنه فصاح بنفاذ صبر:

- "دع عنك هذا العبث يا أخى .. والله إنك لتستحق أن يوقع بك الدكتور عبيد إحدى جزاءاته الصارمة"

ثم جذبنى من يدى قائلاً :

- "يوجد مريض اسمه سيد فرج فى عنبر ٣ رجال .. عنده اشتباه فى وجود التهاب فى الزائدة الدودية وهو تحت الملاحظة الآن وتجرى له بعض التحاليل .. ولو أثبت التشخيص النهائى أنه يحتاج إلى إجراء عملية فأنت الذى ستقف كمساعد للدكتور عبيد يا محمد ، يجب أن تدرب يديك بعض الشئ وإلا لن تستفيد شيئاً من سنة الامتياز .."

ابتسمت له متملقاً وقلت مستعطفاً :

- "أنت أفضل منى يا عادل .. فكن أنت المساعد فى العملية .. إننى لا أنوى أن أصير جراحاً ..."

قال بإصرار :

- "بل أنت الذى ستساعده فى العملية يا محمد .. إننى أخاف عليك من عدم اهتمامك بعملك .. إن لا مبالاتك هذه لن تؤدى إلا لإغضاب أساتذتك .."

***

من سوء حظى .. ولعله من سوء حظ المريض أيضاً .. أن التشخيص النهائى لحالته أثبت أنه فى حاجة لجراحة عاجلة ، إذ ما أن صحبنى عادل إلى حيث يرقد المريض حتى أقبلت علينا الممرضة وبيدها التقارير ، فالتقطها عادل ونظر فيها برهة .. ثم قال هامساً وابتسامة انتصار ترتسم على شفتيه :

- "مكتوبة لك يا عم محمد .. جراحة عاجلة"

ثم التفت إلى المريض الذى كان يرقد على الفراش ووجهه يشى بالألم والإرهاق رغم المسكنات التى أعطيت له وقال له بجدية :

- "سلامتك يا عم سيد ، الدكتور محمد هو الذى سيتابع حالتك ، وسوف يجرى لك العملية غداً فى الصباح الباكر مع الدكتور عبيد"

ثم انسحب وتركنى فى مواجهة المريض الذى بدا لى كأكبر مشكلة قابلتنى فى حياتى ، حاولت أن أخفى ارتعاد فرائصى أمامه ، وأرسم على وجهى ثقة طبيب ذى خبرة وتمرس ، فانحنيت عليه أفحصه وعقلى يدور بسرعة فى محاولة مستميتة لإيجاد مخرج من تلك الورطة ، لم أكن أستطيع أن أتخيل كيف سأقف مع الدكتور عبيد صباح الغد لأعاونه وأنا الذى كنت أهرب من رؤية العمليات أيام كنت طالباً من فرط اشمئزازى من رؤية الدماء والجروح ... ثم ماذا لو طلب منى الدكتور عبيد أن أقوم بخطوة ما فى العملية ؟ أو ترك لى الجرح لأقوم بخياطته ؟ والآن لن تنفعنى حجتى التى كنت أبرر بها لنفسى تقاعسى عن تعلم الجراحة باعتبار أننى لا أنوى أن أصير جراحاً ... يارب نجنى من هذه الورطة .. يارب الا أجد نفسى فى هذا المأزق إلا مع الدكتور عبيد الذى نرتجف من مجرد سماع اسمه ؟

وانتشلنى صوت المريض من خواطرى وهو يتساءل :

- "الا يمكن أن آخذ علاجاً آخر يا دكتور وتعفينى من إجراء العملية ؟"

كدت أهتف من أعماقى :

- "يا ليت كان هذا ممكناً ، وتعفينى أنا من هذه العملية"

تمالكت نفسى وقلت له وأنا أرسم الوقار على وجهى :

- "غير ممكن"

قال مستجدياً وكأنما كان هذا الأمر بيدى :

- "أرجوك يا دكتور . إننى على استعداد لتناول أى دواء أو حقن ولكن أعفينى من الجراحة"

قلت وأنا لا زلت متمسكاً بوقارى المصطنع :

- "العملية ضرورية يا عم سيد ؟"

- "أنا خائف يا دكتور فهذه أول مرة تجرى لى فيها عملية"

فتلبسنى شيطان العبث وقلت باسماً :

- "وأنا والله يا حاج .. هذه أول مرة أجرى فيها عملية"

اتسعت عينا الرجل رعباً، وإذا بوجهه يصفر، ثم يغشى عليه من الهلع .

كان الدكتور عبيد لحظى الأسود موجوداً فى العنبر يتابع أحوال المرضى، ولم أنتبه وأنا فى غمرة انشغالى بخواطرى ومخاوفى أنه قد صار واقفاً عند الفراش المقابل لفراش الحاج سيد فرج ، وأنه قد سمع حديثى معه عرضاً فاعتبر جملتى الأخيرة هزلاً لا يليق بوقار الطبيب ، وعبثاً لا تحتمله جدية المهنة ، فكان جزاء صدقى مع المريض أننى حولت للتحقيق ، وتم إيقافى عن العمل أسبوعاً مما منعنى - بل نجانى - من حضور العملية، وحين عدت إلى المستشفى بعد أسبوع الإيقاف كان الوقت قد حان لأنتقل أنا وصديقى عادل وزملاؤنا الآخرون إلى قسم غير قسم الجراحة

بالمستشفى لنمضى به فترة أخرى من سنة الامتياز ..

***

أعتقد أننى امتلك حساً تشخيصياً لا بأس به فى فروع أخرى من أفرع الطب، رغم زعم عادل بأننى إنما أتوصل إلى التشخيص الملائم بمحض الصدفة ليس إلا، وهو يقول هذا لمجرد أننى لا أتبع الخطوات العلمية المنصوص عليها فى كتب الطب والموصى باتباعها للوصول إلى التشخيص الصحيح للأمراض.. بينما أرى أن عادل يسفسط كثيراً فى الأمور العلمية فذات يوم كنا فى قسم الطوارئ حين دخل الحجرة رجل ضخم الجثة، ذو شارب كث، وصوت جهورى وكان يحمل بين ذراعيه صبياً يناهز العاشرة بيسر وسهولة وكأنه يحمل قطة صغيرة، ومن حوله التف ثلاثة رجال يرتدون الملابس البلدية يتنافسون فى تهدئة لهفة العملاق على الصبى الصغير ..

وجدت نفسى وجهاً لوجه أمامه فأشرت إليه أن يرقد الصبى على الفراش وسألته :

- "خير إن شاء الله يا معلم ؟"

قال بصوت مخضّل بالدموع حتى بدا لأذنى غير متناغم مع جرمه الهائل الذى ملأ فراغ حجرة الاستقبال :

- "ابنى يا دكتور . ابنى الوحيد"

رمقت الصبى بطرف عينى فبدا لى موفور الصحة والحيوية ، لم أجد به

أية إصابات ظاهرة فتساءلت :

- "مم يشكو ؟"

فانتحب الرجل :

"صدمته دراجة ، فسقط على ذراعه ، ألا ترى يا دكتور أنه لا يستطيع أن يحركها ؟ ألا ترى أنها تؤلمه بشدة ؟"

وكأنما تذكر الولد ألمه ، فقد شيع كلام والده بصرخة اقشعر لها بدني ومضى يولول باكياً :

- "ذراعي ، ذراعي .. انكسر ذراعي"

هتف المعلم بلهفة :

- "انجده يا دكتور .. الولد يقول إن ذراعه انكسر ..."

أمسكت بذراع الصبي المصابة ... كانت متورمة من عند المرفق ، وفي أسفل الذراع آثار كدمات بسيطة ، مررت بيدي عليها أتحسس العظام ، فأطلق الصغير صيحة أخرى من صيحاته المدوية ، فكشر والده عن أنيابه ورفع صوته مهدداً :

- "جرى ايه يا دكتور؟ أأحضرت لك ابني لتعالجه أم لتكسر له ذراعه؟"

هممت بالرد عليه رداً مناسباً ، لولا أنني نظرت نظرة ثانية إلى بنيانه العظيم وعضلاته المفتولة فآثرت الاعتصام بالحلم ومكارم الأخلاق ..

عدت أحاول فحص ذراع الصبي الذي صرخ صرخة أعلى من

الصرخة الأولى ودفعنى بكفه بعيداً عنه فصحت به مؤنباً ، وما أن فعلت هذا حتى انهالت علىّ عبارات التوبيخ من الرجال المحيطين بالمعلم :

- "وبعد هالك يا دكتور ؟"

- "هو الولد حملك ؟"

- "يا معلم قلت لك ننتظر حتى تفتح عيادة الدكتور سمير بعد ساعتين خفت على الولد وقلت لنا المستشفى قريبة وزين .. جالك كلامى ؟"

لمحت المعلم وهو ينظر إلىّ نظرة شزراء وكأنه يهم بافتراسى ، ضقت بهم جميعاً وقررت بينى وبين نفسى أن هذا الصبى المدلل الذى قامت الدنيا ولم تقعد لمجرد أن دراجة صدمته لا يمكن أن تكون ذراعه قد كسرت وإلا لكان قد ملأ الدنيا صراخاً وعويلاً ، أمسكت بدفتر التذاكر وكتبت له علاجاً ، وقدمت الورقة للمعلم وأنا أقول :

- "سليمة يا معلم .. اعطه هذه المسكنات وهذا الدهان ، وسيشفى بإذن الله .. إنها مجرد كدمات"

أشرق وجه الرجل وقال بفرحة طاغية :

- "ذراعه إذن سليمة يا دكتور ؟"

- "الحمد لله يا معلم .."

قال وصوته ينضح بالعرفان وكأنه لم يكن منذ لحظات يكاد يفتك بى لأننى اسبب ألماً لولده :

- "لا أدرى كيف أشكرك يا دكتور ، اطلب منى أى شئ أحضره لك

فـى الحال"

فى تلك اللحظة دخل عـادل حجـرة الفحص ، ويبـدو أنه صادفـهم فى الاستقبال وعرف منهم حالة الصبى فقد بادر المعلم يسأله :

- "عملت الأشعة يا معلم ؟"

- "لا داعى لها يا دكـتور ، فإن هذا الدكتور العظـيم - وأشار إلىّ - قد كتب لابنى علاجاً وانتهى الأمر .."

أصر عادل "الأشعة ضرورية جداً يا معلم .."

تبادل الرجال ذوو الجـلاليب نظرات حائرة بينهم حـسمها عادل بكتابة طلب أشعة ناوله للمعلم وهو يقول : "حـجرة الأشعة فى نهاية هذا الممر .. قدم لهم الطـلب بعد دفع جنيهين فى الخـزينة وانتظر حتى يعطـونها لك ثم تعالى إلى هنا مرة ثانية"

تناول الرجل الورقة بتردد ينم عن عدم اقتناع فأردف عادل يشجعه :

- "هذا لمصلحة ابنك يا مـعلم ، قد يكون هناك كسر بسـيط ، لن تظهره سوى الأشعة ..."

وخرج الرجال بخطوات بطيئة وهم يتلـفتون خلفهم وينقلون أبصارهم بينى وبين عادل وكأنهم يحاولون تقرير أينا يبدو أولى بالثقة ..

ما أن خلت حجرة الكشـف إلا منا حتى ابتلرنى عادل مؤنباً :

- "أجننت يا محمد ؟ أهذه إصابة تشـخص بلدون أشعة"

- "الولد يبدو لى سليماً .."

- "يبدو لك ؟ ما هذا الاصطلاح المائع غير العلمى ؟ من الممكن جداً أن "تبدو" الذراع سليمة بينما العظام مشروخة"

اعترضت قائلاً : "يا عادل يوجد فى الدنيا شئ آخر غير الحقائق والقوانين والخطوات الإكلينيكية الواجب اتباعها .. هناك شئ فى الدنيا اسمه الإحساس .. المشاعر ...."

قاطعنى : "كل هذه الأشياء جميلة .. لكنها لا تصلح فى تشخيص الأمراض يا محمد"

***

عاد المعلم حاملاً صورة الأشعة معه ففحصها عادل باهتمام بينما رحت أفكر فى مصيرى على أيدى هؤلاء الرجال ، لو أسفرت نتيجة الأشعة عن كسر فى الذراع يكذب تشخيصى للحالة ..

رفع رأسه مبتسماً ثم قال :

- "الحمد لله يا معلم .. سليمة .. اعط ابنك المسكنات التى كتبها له الدكتور محمد وسيصبح على ما يرام فى خلال أيام"

نظر إليه المعلم باستخفاف وقال مستهزئاً :

- "ما كان من الأول ..."

ثم مال عليه وخفض صوته قائلاً بلهجة الناصح :

- "يا دكتور .. زميلك عرف منذ البداية أن ذراع مسعد ابنى سليمة بدون أشعة ومصاريف وقلق ووجع قلب .. اسأله كيف عرف ، وتعلم منه .. فهو طبيب ماهر حقاً ..."

كتمت ضحكتي بصعوبة .. ولمحت عندئذ أحد الرجال ذوى الملابس البلدية وهو يميل على المعلم ويهمس فى أذنه ببضعة كلمات سارع المعلم على إثرها بإخراج محفظة جلدية كبيرة مكتظة بالنقود وفتحها وهو يقول لمرافقه : "واجب فعلاً يا عوض .. كيف فاتنى هذا ؟"

ثم دس ورقة مالية من فئة الخمسة جنيهات فى يدى وقال بحماس :

- "دى حلاوتك يا دكتور"

انزعجت بشدة من تصرف الرجل وقلت غاضباً :

- "ما هذا يا معلم ؟"

- "شئ بسيط يا دكتور .. عشان الشاى والدخان"

كاد عادل ينفجر ضاحكاً بينما لعنت أنا مواهبى التشخيصية الفذة التى وضعتنى فى هذا الموقف المحرج .

***

قبيل انتهاء سنة الامتياز بأسابيع زفت شقيقتى الوحيدة فوزية بعد أن جنى على مستقبلها العلمى حبى للآثار .. فبفضل قيامى عنها بحل معظم واجباتها فى مقابل أن توافق على القيام بدور السائحة التى تستمع إلى مرشدها السياحى العظيم ، كبرت فوزية وهى لا تكاد تعرف شيئاً عن

معظم المواد ، وظل مستواها ضعيفاً على مر السنوات حتى تعثرت أكثر من مرة فى دراستها .. فلما حصلت أخيراً على الثانوية العامة كان مجموعها يتخطى الحد الأدنى للنجاح بدرجة واحدة فلم تجد لها مكاناً فى جامعة أو معهد .. وكان هناك خياران أمامها إما أن تعيد الثانوية العامة لتحسن مجموعها أو تقنع بالزواج ورعاية الأطفال ، رحبت فوزية بالحل الثانى ، وكذلك أبواى .. وأيام كانت شقيقتى تستعد للزفاف كنت غارقاً حتى أذناى فى عشق قطر الندى ابنة خمارويه الذى حكم مصر بعد والده أحمد بن طولون .. والتى تزوجت من الخليفة العباسى آنذاك المعتضد بالله وعاشت معه فى بغداد .. أراد والدها خمارويه أن يعوضها عن فراقها لديارها ويرفع من شأنها أمام خليفة المسلمين ، فجهزها بجهاز تحاكت به الأجيال .. أقام لها قصوراً على طول الطريق بين القاهرة وبغداد .. كل قصر يبعد عن الذى يليه مسيرة يوم واحد ، تبيت فيه ليلها ، وتستأنف رحلتها فى النهار .. أرسل معها خمارويه - ذلك الأب الحنون - خضروات طازجة مزروعة فى أوان فخارية ليتسنى لها أن تأكل ما تشتهيه نفسها وقتما تشاء ...

كنت أقارن بين خمارويه وبين أبى الذى يجلس مع أمى كل يوم جمعة فيمسك بدفتر صغير يدون فيه كل ما أنفقته أمى وفوزية على الجهاز خلال الأسبوع المنصرم ، ثم يجرى عدة عمليات حسابية وهو يتمتم بأرقام وكلمات مبهمة ، يتبعها بعبارات تعنيف يصبها على رأس أمى ملخصها أنها لا تقدر معاناته ولا ظروفه ، ولا يهمها إلا أن تشترى ما يروق لها

ولإبنتها من أجل مظاهر فارغة أمام أناس تافهين سيجدون حتماً ما ينتقدونه في النهاية .. تنخرط في بكاء يبدأ صامتاً ثم سرعان ما يصاحبه نشيج فتنعى حظ ابنتها وتقارنها بجارتنا وابنة خالتنا ، ولا يفوتها أن تستثير عاطفة الأبوة في قلب أبي في تلميح هو أقرب للتصريح بأن فوزية لم تنل نصيبها العادل من التعليم ، وأن الجهاز هو آخر ما يقدمه الأب لابنته فلا بأس أن يحاول تدبير أمره بأي وسيلة ليستطيع أن يجهزها بجهاز لائق .. فيلين أبي ، وتخبو ثورته ، ويلملم أوراقه وحساباته ولا ينسى أن يوصي أمي بالتعقل في الإنفاق رغم كل شئ ، فهو مدين بألف جنيه لشقيقه وبألف أخرى لصديق عمره وهو لا يريد أن يستدين أكثر من ذلك ..

يسرح عقلي إلى خمارويه وأتخيل ما سيكون عليه حالي لو عثرت بزوجة مثل قطر الندى .. مال وصبا وجمال .. ورجل مثل خمارويه - رحمة الله عليه - يزف إليّ عروستي - في موكب لم تر مثله عين - محملة بالنفائس والجواهر ويبني لها قصراً في كل بلدة على طول الطريق من جليم بالإسكندرية مثلاً إلى بيتي هنا في الحسين .

لا عجب أن وقعت في عشق قطر الندى .. وتوطدت علاقتي بها في الخيال أكثر وأكثر كلما رأيت استعدادات زفاف فوزية إلى خطيبها شعبان ، ولا عجب كذلك في أنني أحببت خمارويه ذا الأريحية والكرم الحاتمي إلى درجة أنني لم أترك كتاباً ولا مرجعاً يتحدث عن فترة حكمه إلا وقرأته .. وكلما عثرت بكتاب يصف جهاز قطر الندى وموكبها وليالي عرسها المبهرة التهمته التهاما ، وأعدت قراءته مرات ومرات حتى صرت أشعر أنني

أنتمى لذلك العصر أكثر مما أنتمى لدنيتى هذه .. وبينما أنا سادر فى خيالاتى تلك إذ انتقلت مع زملائى إلى قسم أمراض النساء والولادة ..

ولم أكره فى حياتى قسماً من أقسام المستشفى كما كرهت هذا القسم .. كانت التأوهات وصرخات الألم تنبعث منه على مدار اليوم .. وكنت أسأل نفسى كل يوم كيف تمر امرأة بكل هذا العذاب ثم تعود لتحمل وتلد مرة أخرى ؟ أى سر وضعه الله فى الأم بحيث تنسى أو تتناسى كل ما تجرعته من آلام ومعاناة بعد ساعات أو أيام من ولادتها ؟ كنت أرمق كل امرأة تأتى لتلد ولديها أربعة أو خمسة أطفال بمزيج من الذهول والإعجاب ، لكننى على أية حال كنت أتجنب التواجد حيث تتم الولادة ما وسعنى فقد كان صوت الألم يخدش قلبى ويجرح روحى ...

وفى ليلة باردة ممطرة ، والرياح تعوى فى الخارج ، كان كل شئ يغرى المرء أن يدس نفسه فى فراشه مع مشروب ساخن يلوذ بدفئه من برد الشتاء القارس ، لكنه كان اليوم المخصص لى من كل أسبوع للمبيت فى القسم تحسباً لأى طارئ ، وكنت أدعو الله من قلبى أن تمر الليلة دون أن أجد نفسى أمام حالة ولادة كما مرت الليالى التى قضيتها وحدى فى القسم طوال الأسابيع الثلاثة الماضية ، ظللت أمنى نفسى بأن كل شئ سيسير على ما يرام ، وعندها لن يصبح باقياً لى سوى أسبوع واحد وأنتهى من سنة الامتياز هذه لأقرر بعدها التخصص الملائم لطباعى .. ومؤكد أننى لن أختار الجراحة أو النساء والتوليد ..

كنت مستغرقاً فى قراءة كتاب عثرت عليه منذ يومين فى إحدى

المكتبات يتناول فترة حكم أحمد بن طولون وابنه خمارويه لمصر ، إذا بجلبة شديدة فى الخارج فخرجت مسرعاً أستطلع الأمر، كان عدد من النسوة يرتدين السواد ومعهن رجل تستند إلى ذراعه امرأة بدا واضحاً أنها فى حالة وضع وأنها متعبة للغاية، لعنت فى سرى نبيل - النائب المقيم الذى كان من المفترض أن يقضى هذه الليلة معى فى المستشفى ولكنه - سامحه الله - أقنعنى بالتستر على تغيبه ليستطيع أن يحضر حفل زفاف أحد أصدقائه مقسماً لى أنه لن يتغيب أكثر من ساعتين على الأكثر ثم يعود، وها هى خمس ساعات قد مرت منذ انصرافه فلم يعد، ولا يبدو أنه سيعود ..

وما أن رأتنى النسوة مرتدياً معطفى الأبيض .. حتى هجمن علىّ هجوم التتار ، وهن يتحدثن فى صوت واحد فهمت منه بالكاد أن هذه المرأة المتعبة هى زوجة الرجل الواقف إلى جوارها ، وأن الطلق قد بدأ يعاودها منذ الصباح، ومضى يشتد عليها تدريجياً بلا فائدة تذكر لأن فتحة عنق الرحم كما أخبرتهن الداية لا تزال ضيقة لا تسمح بمرور رأس الطفل ونصحتهن بإحضارها إلى المستشفى لأن الحالة تبدو متعسرة .

طلبت من إحدى الممرضات أن تعاون المرأة فى الاستلقاء على أحد الأسرة ، فحصتها فوجدت وضع الجنين طبيعياً لكن شيئاً ما جعل رحمها لا يستجيب كما ينبغى لتقلصات الولادة ، كان كل المطلوب حقنها ببعض الأدوية المنشطة للطلق ثم انتظار الفرج ..

علقت لها المحاليل بمعاونة الحكيمة الموجودة هذه الليلة وكانت سيدة كبيرة تبدو عليها الخبرة فاطمأننت نوعاً ما ، فالولادة الطبيعية قبل كل شئ

هى مجرد عملية فسيولوجية من المفترض أن تتم تلقائياً وعندئذ لا ينبغى أن أخشى شيئاً خاصة فى وجود هذه الحكيمة المتمرسة ..

عاودت الاتصال بالدكتور نبيل فى منزله لعله يكون قد عاد فرد على صوت لامرأة نصف نائمة رجحت أنها والدته أخبرتنى أن الدكتور نبيل فى المستشفى .. لعنته فى سرى وأقسمت ألا أدارى على زميل لى بعد الآن أبداً، لو تنتظر هذه المرأة فلا تضع مولودها قبل الصباح ، عندئذ يكون بقية النواب والأطباء قد وصلوا ، وأرفع عن كاهلى مسئولية سلامتها وسلامة طفلها وبينما أنا غارق فى خضم خواطرى ، أقبلت الحكيمة مسرعة لتخبرنى أن الطفل على وشك الخروج وأن المرأة فى حاجة إلى طبيب إلى جانبها ..

سترك يارب ..

تجمدت أطرافى من الخوف، ما عساى أفعل لو حدث للمرأة أى طارئ؟ أتضيع المرأة والوليد ثمناً لعبث نبيل ولضحالة علمى ؟ داهمنى شعور جارف أننى قد ارتكبت خطأ فاحشاً فى حق نفسى وحق كل من يقع تحت يدى من المرضى حين طاوعت أبى والتحقت بكلية الطب .. إثمى صار مضاعفاً عندما استسلمت فلم أحاول أن أستزيد من العلم أو أستفيد من التدريب العملى أثناء سنة الامتياز ، ووقع بصرى على الكتاب الذى كنت مستغرقاً فى قراءته فرمقته بعتاب وقلت هامسا " بم ستنفعنى الآن يا عم خمارويه وقد صرت وجهاً لوجه أمام امتحان قاس ؟"

وقفت وأنا أشعر بساقىّ تخوران وركبتى تصطكان ، وكأنما حدست

الحكيمة ما بى فقد قالت بعطف :

- "لا تقلق يا دكتور محمد، الولادة ستتم بصورة طبيعية بإذن الله إن لى ثلاثين عاماً فى قسم أمراض النساء.. وسأكون إلى جوارك فلا تخش شيئاً"

أحسست بالحرج من قولها ، وطويت صدرى على شعور جارف بالعرفان لها ، وسرت أمامها فى اتجاه حجرة المرأة ، وقد عاودتنى بعض الشجاعة لشعورى بأن إلى جوارى أحداً ذا خبرة ...

***

سار كل شئ .. على ما يرام بمعاونة مستترة من الحكيمة فى قطع الحبل السرى وإنزال المشيمة من رحم الأم ، تلقيت الطفل بين يدى ، صغيراً خائفاً، يملأ فراغ الحجرة صراخاً ، ورغماً عنى شعرت أننى أحبه .. إنه أول طفل أتلقاه بين يدىّ عقب ولادته مباشرة ، فكّرت أية مأساة كانت ستحدث، وأى حزن كنت سأتسبب فيه للجميع لو كانت الولادة قد تعسرت لأى سبب ، فمات الطفل أو الأم أو كلاهما .

انتزعنى من خواطرى اقتحام الأب لغرفة التوليد بعد أن أخبرته إحدى الممرضات أن زوجته وضعت طفلاً ذكراً .. قبل أن أبدى أدنى اعتراض على دخوله الحجرة بهذه الصورة صاح بفرحة عارمة :

- "أخيراً ولد .. أخيراً .. بعد ثلاث بنات .. بعد أن يئست من أن أرزق بصبى .."

مال على امرأته التى أغمضت عينيها ... وهمس بفرحة :

- "عفارم عليك يا أم العيال .. عفارم يا أم زينات ..."

ثم استدرك :

- " لا .. لم تعد أم زينات ... بل أم ... أم ..... "

ثم نظر إلىّ وكأنه لم يلحظ وجودى فى الحجرة إلا الآن وقال بامتنان :

- "سلمت يداك يا دكتور .. يا وجه الخير والسعد .. والله لا يسمى هذا الولد سواك"

وانطلق الرجل يغدق علىّ الشكر حتى انتشيت وامتلأت فخراً دون مبرر، وعبثاً حاولت التخلص من مسئولية إطلاق اسم على الطفل المولود فقد كنت أرى أن تسمية الأبناء حق لآبائهم وأمهاتهم فقط ، لكن الرجل أصر إصراراً شديداً حتى كاد يغضب من إحجامى عن تسمية ابنه ظناً منه أننى إنما أترفع عن تسمية ابن رجل بسيط مثله ..

.... فكرت برهة فى أحب اسم إلىّ لأطلقه على أول طفل تلقيته من غياهب الرحم ...

قلت مبتسماً :

- "سمّه خمارويه يا معلم .."

فغر الرجل فاه بذهول ، ثم تمالك نفسه فاستعادنى الاسم ، فرددته مرة ثانية ، تملك الرجل شيطان الغضب ، واندفعت الدماء إلى رأسه فتلون وجهه بحمرة قانية وصاح ثائراً :

- "حمار ايه ؟ ابنى أنا اللى جاءنى بعد طول صبر تسميه أنت يا شر

الأطباء حمار ايه ؟"

- "خمارويه يا معلم ، خمارويه .."

جن جنونه وصرخ :

- "أتسخر منى ؟ أتريد أن يصير ابنى أنا مسخاً وسط أقرانه ؟"

صحت به وقد ضقت ذرعاً بجهله :

- "خمارويه هذا كان أعظم من عشرة من أمثالك أنت وابنك .."

لم أدر ماذا حدث بعد ذلك ، لكن عادل أخبرنى فى مساء اليوم التالى حين افقت من تأثير المسكنات أن فكى لم يكسر والحمد لله ، وأن اللكمات التى سددها الرجل إلى وجهى أصابته برضوض وكدمات ستشفى فى غضون أيام ....

رغم كل شئ فقد أفادتنى سنة الامتياز كثيراً ، وحققت هدفها المرجو فى مساعدتى لمعرفة أفضل التخصصات لى .. إننى مدين لتلك السنة ولصديقى عادل بما وصلت إليه الآن من نجاح فأنا الآن مدرس فى كلية الآثار وعلى وشك الترقى لدرجة أستاذ مساعد ، وقد تزوجت من فتاة كانت تدرس معى فى نفس الدفعة فى كلية الآثار تصغرنى طبعاً بسنوات عديدة توازى عدد السنوات التى أضعتها فى مجال لم أكن من الأصل مؤهلاً لدراسته والعمل به .. ولقد أنجبت من حبيبتى بنتاً وولدا .. قطر الندى .. وخمارويه ..

■○■

ولكـــن ..

* فائزة بجائزة نادى القصة عام ١٩٩٦

كنت أقود سيارتى الصغيرة إلى المستشفى بسرعة ، أحاول الوصول فى أقصر وقت متفادياً السيارات الأخرى بمهارة اكتسبتها من كثرة عدد المرات التى استدعيت فيها إلى المستشفى لإنقاذ مريضة من نزيف حاد فاجأها ، أو لإتمام عملية ولادة تعجل الجنين فيها الخروج إلى الدنيا ولم يطق الانتظار حتى الصباح ..

كانت السيدة سعاد خيرى التى استدعونى من أجلها فى عيادتى منذ أسبوع واحد تشكو من تورم ساقيها .. فحصتها فلم أجد بها شيئاً ، نصحتها بالإقلال من الملح فى الطعام ورفع ساقيها على مقعد كلما أمكنها وعلى وسادة وقت النوم ..... طمأنتها بأن هذا شئ يكثر حدوثه مع الحمل حيث يميل الجسم إلى احتجاز السوائل فى أنسجته .. فيما عدا ذلك كانت حالتها العامة مطمئنة جداً بالنسبة لامرأة تكاد تتم شهر حملها السابع فماذا يكون قد حدث فى أقل من أسبوع ليتم استدعائى على وجه السرعة إلا أن تكون قد تعرضت لحادث داهمها فجأة .

دخلت الحجرة التى ترقد فيها السيدة سعاد وهى تنزف فألفيتها تبكى بحرقة .

قلت :

- "تفاءلى خيراً يا سيدتى .. لا تنفعلى هكذا فهذا يزيد الحالة سوءاً

والنزيف حدة .."

نشجت باكية كأنها لم نسمع كلمة واحدة مما قلت ... انحنيت عليها افحصها وأيقنت لدى انتهائى من فحصها أنه لا يوجد أمل فى استمرار هذا الحمل يوماً آخر ، وأن الولادة ستتم فى غضون دقائق أو ساعات لا محالة.. فإن عاش المولود تكن رحمة من الله ، وإن مات فذلك شئ ينبغى أن يتوقعه أهله خاصة وأنه لم يكمل شهره السابع فى رحم أمه ..

تلفت حولى وأنا أسأل الممرضة الواقفة إلى جوارى :

- "ألا يوجد معها أحد ؟"

تقدمت امرأة كانت واقفة فى ركن الغرفة البعيد وقالت بصوت منهافت:

- "أنا أمها "

قلت بلهجة قاطعة :

- "يجب أن تتم الولادة فى الحال"

شهقت المرأة معترضة :

- "لكنها لم تكمل شهرها السابع بعد"

- "لا يوجد بديل لهذا .. بكل أسف"

وضعت السيدة سعاد مولوداً ذكراً خرج من رحمها إلى حضانة المستشفى مباشرة .. مررت عليها بعد إتمام الولادة بساعة فما راعنى إلا

رؤيتـها وقلبـهـا يكاد ينفطر من البكاء وأمـها جـالسـة إلى جانب فـراشهـا ودموعها تسيـل من عينيها ، ولولا أننى قد التقيت بطبيب الأطـفال مصادفة وأنا فى طريقى إلى حجـرتها وعرفت منه أن المولود بخـير لظننته قـد قضى نحبه وأنها تبكى فلذة كبدها الذى لم تهنأ برؤيته ...

قلت معاتباً :

- "ماذا جرى يا مـدام سعاد ؟ سيكون الطفل بخـير بإذن الله ، وكم من أطفال ولدوا قبل موعد الوضع وعاشوا أصحاء ..."

ازداد بكاؤها حـرقة فـالتفت إلى والدتهـا متـسـائلاً أجـابت الأم من بين دموعها وهى تنهض وتنتحى بى جانباً :

- "إن سعاد لا تبكى وليدها .. بل تبكى زوجها يا سيدى ؟"

- "زوجها ؟ آه ... تذكرته .. الأستاذ خالد"

قالت تصحح معلوماتى :

- "خليل"

- "نعم .. نعم .. رأيتـه مع مـدام سعـاد أكثر من مـرة .. أين هو ؟ هل تخلف عن الحضور ليرعى الصغيرة ريثما تضع أمها ؟"

- "لا .. لقد تركنا ابتسام فى رعاية جيرانـنا .. أما خليل فقد قضى نحبه مساء أمس فى حادث بشع على الطريق وهو عائد ببضاعة لدكانه ..."

قلت وقد أدركت ما حدث للسيدة سعاد :

- "إذن فما حدث لابنتك كان من وقع الصدمة عليها ؟"

اغرورقت عينا الأم بالدموع وقالت والنشيج يقطع عباراتها :

- "كان خليل نعم الزوج لها ونعم الأب لابنتـهما .. وكان لى أحنّ من الولد على أمه ... رحمه الله"

غاص قلبى حزناً ، ودعوت الله من أعماق قلبى أن ينجو الطفل الصغير عساه يعوضها بضحكاته ومناغاته عن حزنها وأساها ...

بيد أن الأماني لا تتحقق كلها .. فـلم تكد تمضى ساعة أخرى حتى كان الصغير قد لحق بوالده قبل أن تراه أمه أو تهنأ بضمه إلى صدرها ساعة .

(٢)

لم يكن قد مضى على هذه الواقعة إلا شهـر أو أكثر قليلاً حين فوجئت بزيارة السيدة سعاد ووالدتها . كانت السـيدة سعاد بادية الشحوب والإجهاد فظننتـها جاءت تشكو تعـباً ألم بهـا ، أو أنها جاءت تطمـئن على استـقرار صحتها بعد أو وضعت مولوداً لم تكد عـيناه تريان نور الدنيا حتى أغمضتا إلى الأبد ..

وابتدرتنى أمها قائلة :

- "كنا نريد منك يا دكتور شهادة طبـية أن ابنتى وضعت طفلاً ذكراً بعد سبعة أشهر من حملها ... ".

تطلعت إليها دون أن أفهم وتساءلت :

- "وبماذا يفيدك هذا يا سيدتى ؟"

- "ينقذ حفيدتى وابنتى من العوز والحاجة ".

- "لا أفهم .. لقد وضعت السيدة سعاد طفلاً مبتسراً .. ثم مات .. وانتهى الأمر ..."

تدخلت سعاد فى الحديث بصوت واهن :

- "دعنى اشرح لك الأمر يا دكتور .. تزوجنى خليل على غير رغبة شقيقه الأكبر إبراهيم الذى كان يريد أن يزوجه من شقيقة زوجته بحجة أننى فقيرة لا أمتلك شيئاً يذكر من حطام الدنيا ، وأن رغبتى فى الزواج منه تخفى وراءها طمعاً .. وكان خليل وإبراهيم قد ورثا عن والدهما محلاً كبيراً لبيع الأقمشة ، فلم يزل إبراهيم يناوئ خليل حتى اضطره إلى بيع نصيبه فى المحل له بثمن بخس"

سالت دمعة على خدها وارتعشت شفتاها منذرتين بالبكاء ، بدت فى حزنها كأنها قد شارفت الخمسين من عمرها رغم أنها كانت فى السابعة والثلاثين .. رثيت لها .. ولم أستحثها لتستطرد فى الحديث احتراماً لحزنها ومشاعرها ، وتركتها تذرف دمعتين قبل أن تكمل حديثها :

- "ورغم ظلم إبراهيم البين لخليل فإنه لم يرض لنفسه أن يدخل فى معارك مع شقيقه ، ورضى بالمبلغ الضئيل الذى أعطاه له إبراهيم ثمناً لنصيبه .. ولو أنه أنصفه لمنحه ثلاثة أضعاف المبلغ .. لكنه الطمع وميل النفس المريضة لاستغلال ذوى الخلق الرفيع ..

تزوجت من خليل بعد سنوات ضاعت علينا فى محاولات فاشلة لنيل

رضا شقيقه الوحيد ومشاكل كثيرة اختلقها إبراهيم لمجرد أن يؤخر سعادتنا ويعكر علينا صفو تفاهمنا .. فقد كبر عليه أن يقاوم خليل رغبته فى تزويجه فتاة بعينها وهو شقيقه الأكبر الذى كفله بعد وفاة والديهما ....."

صمتت لحظة لتجفف دمعة أخرى غافلتها وانحدرت مسرعة على وجنتها ، ثم أضافت :

- "كان عشمى أن تذيب الأيام جليد الخلاف بين الشقيقين ، لكن الزمن أثبت لى كم كنت مفرطة فى تفاؤلى حين تصورت أن لإبراهيم قلباً كقلوب البشر .."

تطلعت إلىّ بعينين منتفختين من البكاء وقالت :

- "هل تتصور يا دكتور مصطفى أنه رفض أن يقابل خليل حين حمل إليه ابنتنا ابتسام عقب مولدها بأيام وكان خليل يحاول أن يعيد علاقته به إلى سابق عهدها ؟ لم تأخذه رأفة بشقيقه .. وأمر خادمه أن يطرده من البيت الذى تربى فيه وعاش طفولته وصباه ...

وبقدر ما استمات خليل فى استرضاء شقيقه الوحيد لج إبراهيم فى نفوره منا ، وظل على اعتقاده أننى تزوجت خليل طمعاً فى ماله ، وأن خليل يتودد إليه لا عن حب بل عن رغبة فى أن يعود ليشاركه فى تجارته الرابحة ...

ويعلم الله أننا استغنينا بحبنا وسعادتنا ودخلنا من الدكان الصغير الذى اشتراه خليل عن إبراهيم وأمواله ، وأن خليلاً لم يرغب فى إعادة العلاقات

الطيبة مع شقيقه إلا حباً فيه ، وصلة لرحمه ..."

صمتت فتطلعت إلى وجهها .. وجه لا تكاد ترى فيه مسحة جمال .. ولولا شعرها الطويل المجعد الذى ينسدل على عنقها وكتفيها لتوقف المرء للحظة أمامها ريثما يتحقق إن كان هذا الوجه لرجل أم لامرأة ...

تساءلت بينى وبين نفسى عما راق لخليل فى امرأة مثلها .. ولا زلت اذكر حين رأيتهما معاً لأول مرة أننى عجبت للفارق الملحوظ بين حسن هيئته ودقة قسماته ، وبين قامتها القصيرة وقسماتها المتنافرة ، ولطالما خيل إلىّ أنه يصغرها بسنوات ، والحق أنه كان يماثلها فى السن غير أنها هى التى كانت تبدو دوماً أكبر من سنها حتى قرّ فى نفسى أن خليل قد تزوجها ولا شك طمعاً فى مال مكدس لديها .. ولكن ها هى الآن تقوّض بقصتها كل ظنونى ، فما عساه يكون قد أحب فيها ؟ لعلها واحدة من هؤلاء اللاتى يمتلكن قلوباً من ذهب .. ونفوساً شكلت من الرحمة المصفاة فيطغى جوهرهن النفيس على مظهرهن الخارجى المتواضع فإن كانت منهن فنعم من اختار خليل ..

غالبت دموعها ، واختنق صوتها تحت وطأة الانفعال فتولت عنها أمها إكمال الحكاية وقالت بانفعال :

- "كان خليل نعم الرجل .. شتّان الفرق بينه وبين ذلك الجشع"

عاتبتها سعاد بنظرة لائمة ، فاستدركت الأم تبرر انفعالها :

- "أيرضيك يا دكتور.. ونحن لانملك من حطام الدنيا شيئاً -أن ينازعنا

هذا المدعو إبراهيم فى ميراث شقيقه ؟ - ينازع أرملة لا حيلة لها وطفلة يتيمة في دكان صغير هو كل ما بقى لهما وكل ما يمكن أن يقيم أودهما ؟ ويتحجّج أن خليل لم ينجب ذكراً يحجب عن العم أن يرث أخيه ..."

استنكرت :

- "كيف هذا ؟ وماذا عن الولد الذى مات عقب ولادته بقليل ؟ إنه يرث أبيه ثم ترثه أمه وأخته "

تهلل وجه العجوز وقالت تبشر ابنتها :

- " ألم أقل لك أن الدكتور مصطفى سيتعاون معنا ..؟ إلينا إذن بشهادة تثبت أن سعاد ابنتى وضعت طفلاً ذكراً ولك منا خالص الشكر والعرفان"..

مددت يداً مترددة إلى ورقة بيضاء بجوارى وهممت أن أكتب لها الشهادة التى تريدها بيد أننى توقفت ثم تساءلت :

- "لا أفهم لماذا تريدين منى شهادة يا سيدتى .. أظن أنه يوجد لديك شهادة ميلاد وشهادة وفاة للصبى ، فلا معنى للحصول على شهادة أخرى منى ..."

بدا صوت سعاد مجهداً خفيضاً وهى توضح :

- "إبراهيم يطعن فى كون الطفل قد ولد وعاش .. ويقول إنه جنين ولد قبل موعده ومات سقطاً لأننى لم اكمل بعد سبعة أشهر من الحمل ..."

اضافت الأم :

- "يقول المحامى إن القانون فى بلدنا ينصّ على أن الحمل يعتبر كاملاً

ويرث المولود عندما يولد عند إتمام ثمانية وعشرين أسبوعاً من الحمل" ..

واكملت سعاد :

- "ولد طفلى بعد سبعة وعشرين أسبوعاً فحسب" ..

تفكرت قليلاً ثم قلت :

- "أرى أن المحامى سيكون أقدر منى على مساعدتكما" ...

قالت أم سعاد بحرارة :

- "شهادتك سيكون عليها المعول الأكبر فى إثبات حق ابنتى وحفيدنى فلا تتركهما لقسوة الحياة والأهل" ...

اعترضت :

- "لكننى لا أستطيع أن أغالط ضميرى وأقول أن الحمل استمر ثمانية وعشرين أسبوعاً" ..

ثم استدركت :

- "صحيح أن هناك دائماً احتمال وارد أن تكون حسابات الحمل غير صحيحة لكن ..."

وخيم علينا الصمت ، وتبودلت نظرات محملة بالحيرة والرجاء والخوف فتمتمت :

- "فلنؤجل هذا الأمر بضعة أيام"

رغماً عنى احتلت مشكلة السيدة سعاد تفكيرى ، طاردنى وجهها

الشاحب الحزين يستجدى المعونة كما طاردتنى أصوات مبهمة وكأنها نشيج طفلة صغيرة تنتحب، تمثلت حيرة سعادة وطفلتها وضياعهما وسط صعوبات الحياة وقسوتها لو حرمتا من الرزق الذى يدره عليهما دكان خليل على تواضعه، لكننى تساءلت هل تسوغ لى الرغبة فى عمل الخير أن أحيد عن العدل؟ لكن أى معنى للعدل إن نصر الباغى وزاد البائس معاناة؟

تساءلت أى قسوة تكمن فى قلب هذا العم حتى ينازع أرملة شقيقه وابنتها فيما لن يضيف إلى ثرائه شيئاً يذكر .. كيف تفتق ذهنه عن تلك الفكرة الشيطانية فطعن فى حياة المولود واعتبره سقطاً ؟

صار ضميرى قاضياً يحاسبنى حساباً عسيراً كل ساعة من ساعات الليل والنهار ..

لو كتبت تقريراً جافاً أصماً أن المولود خرج إلى الدنيا فى سن سبعة وعشرين اسبوعاً أحكم عليها وعلى ابنتها بالشقاء والعوز العمر كله .. ثم ما أدرانى أنه لم يقع خطأ فى حساب الحمل وهو أمر وارد ...

هتف بى قلبى أن ارفق بها ، واضيف إلى عمر جنينها اسبوعاً ... أسبوعاً واحداً فقط يؤمّن لها حياة مستورة ويدحض تدبير العم القاسى ، وقبل كل شئ ألم أتلق مولودها حياً يتحرك بين يدى ؟

(٣)

- "لا يعترف القانون بهذا يا خالى" ..

نظرت إلى ماجد ابن أختى ملياً .. طالب متفوق فى عامه الأخير بكلية

الحقوق .. عابثته باسماً لأخفف من حدة توترى حين جابهنى بجملته تلك :

- "أرجو أن تكون ملماً بالمناهج جيداً يا ماجد" ...

قال بحماس :

- "هذه هى المادة ٢٩ قانون مدنى المختصة بأحكام القانون فى ثبوت الشخصية" ..

ثم استدرك محاولاً أن يثبت لى غزارة علمه :

- "قال لنا أستاذ القانون المدنى إن هناك أعمالاً تحضيرية للقانون مختصة بهذا الأمر حيث أجمع الأئمة على أن أقل مدة حمل هى ستة أشهر وعليها فلا يرث الجنين إلا إذا انفصل حياً ، ويعرف هذا بالعلامات الظاهرة كالعطس والبكاء وتحريك الأعضاء ونحو ذلك فإذا انفصل ميتاً لا يرث" ..

وازدرد ريقه وأخذ شهيقاً وهم أن يستطرد بنفس الحماس :

- " كما أن الجنين لو انفصل بجناية - حتى لو مات - فإنه يرث ويورث .. ويحكى أنه فى خلافة سيدنا عثمان بن عفان ..."

قاطعته وأنا أشعر بالتعب يسرى فى أوصالى من فرط التفكير ...

- "حسبك يا ماجد .. أخبرنى بشئ واحد فقط ، وارحمنى من كل هذه التفصيلات والأعمال التحضيرية للقانون ، ما هو المعمول به الآن فى ساحات المحاكم ؟ متى يعتبر المولود سقطاً "...

- "إذا ولد قبل ٢٨ أسبوعاً يا خالى" ...

(٤)

جلست بين يدى عمى طاهر ، أبيض البشرة والجلباب ، أشيب الشعر والذقن ، كأنه جالس فى هالة من الضياء ..

تصاعدت رائحة القرفة الساخنة تعبق فضاء الحجرة فبعثت فى نفسى ذكريات صباى وأنا ألهو فى بيت عمى مع أولاده .. طالما أثار إعجابى وحنقى. طالما عشقت نقاء وطيبته وابتسامته التى لا تغيض ، كما نقمت على صراحته وبصيرته النافذة تجردنى من أقنعة المجاملة والأخلاق الوديعة ..

- "محتار يا عمى ... ما عدت أعرف الخطأ من الصواب" ..

قال بإيمان :

- "من يكن الله فى قلبه لا يلتبس عليه الحق أبداً" ...

- "أنا مطالب بشهادة وأخاف أن أظلم بها أحداً" ..

- "هات ما عندك" ..

قصصت عليه القصة كلها واختتمتها بسؤالى :

- "إن شهدت أن الأم قد أتمت أسابيع حملها الثمانى والعشرين أكن فى نظر القانون مزوراً ، ولو كتبت أنها حملت سبعة وعشرين أسبوعاً فحسب أكون قد شهدت ضمنياً بأن مولودها يعتبر سقطا فأدفعها هى وابنتها فى خضم معاناة قاسية .. ولن يرتاح ضميرى لهذه الشهادة لأننى تلقيت طفلها حياً يتنفس ويتحرك بين يدى " ..

وصمت أنتظر رده.. فلما طال صمته لم أجد بداً من أن أستحثه بقولى:

- "أرتاح حين أتحدث إليك يا عمى" ..

عـاد الصمت يلفنا فـتململـت فى مجلسى حـتى خرق صـوته السكون حولنا فقال بصوت عميق :

- "أما عدت تقرأ فى كتاب الله يا ولدى ؟"

آه .. ها هو يثيـر حنقى بملاحظاته الفـجائية التى لا عـلاقة لهـا بالحديث الدائر كما كـان يفعل وأنا صغير . وها أنـا أجلس أمامه كابتاً غـيظى عاجزاً عن الرد أو الثورة أو الغضب احتراماً له ..

أعاد سؤاله :

- "أما عدت تقرأ فى كتاب الله يا ولدى ؟" ..

قلت بنفاذ صبر :

- "ما علاقة سؤالك يا عمى بالموضوع الذى جئت أستشيرك فيه ؟" ..

تجاهل سؤالى وطرح سؤالاً آخر :

- "وماذا عن الصلاة ؟"

وكأننى نفس الطفل الواقف بخشوع أمـام عمه يتنازعه الخجل والحنق ، قلت :

- "أداوم عليها ما وسعنى .. ولكن .. مشاغلى كثيرة يا عمى" ..

أسبل جفنيه ورتّل بصوت خفيض وكأنه لا يعننى :

- "رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله" ...

نظر إلى مبتسماً وقال :

- "هاك ردى عن مسألتك يا ولدى إن الله تعالى يقول فى كتابه العزيز: "وحمله وفصاله ثلاثون شهراً"

ويقول عز وجل فى موضع آخر من القرآن الكريم :

"وفصاله فى عامين" .. فانظر بنفسك كم شهراً تحتاجه المرأة لتضع مولوداً حياً ثم افعل ما بدا لك" ..

رنوت إليه بإعجاب وتذكرت فجأة أننى قرأت منذ شهرين فقط بحثاً حديثاً قررت فيه منظمة الصحة العالمية أن المولود يعتبر كاملاً ويرث إن ولد بعد ستة أشهر ..

ولكن هل يغنى كل هذا عن الحقائق الجافة التى تريدها المحكمة ؟

إن القاضى يريد شهادة واضحة محددة المدة فماذا أكتب فيها ؟

مضيت نحو الباب متفكراً فجاءنى صوت عمى من خلفى يرتل :

- "ألا بذكر الله تطمئن القلوب" ...

(٥)

كنت فى عيادتى ممزق الفكر ، مبعثر التركيز حين تذكرت وكأنما فجأة الأستاذ الهامى خليفة حما شقيقى الأصغر . محامى شهير ضليع فى مهنته، كيف غاب عن ذهنى أن أستشيره فيما يؤرقنى ؟ ومن يدرى ، فقد يكون فى

جعبته حل لحيرتى ..

- "مرحباً بك يا ولدى فى أى وقت تشاء .. نعم ... تستطيع أن تمر على فى مكتبى عقب انتهائك من العمل فى عيادتك فأنا لا أعود إلى البيت قبل منتصف الليل" .

ذهبت إليه عقب انتهائى من العمل فى عيادتى .. جلست أنتظره فى الصالة ريثما يفرغ من مقابلة آخر زبائنه .. وددت لو وجد لى نصاً فى القانون لا يشترط مدة محددة للحمل يتقرر بعدها إن كان المولود حياً أم سقطاً . تمنيت ألا أحيد عن العدل وفى الوقت ذاته لا أشتط فى القسوة على سعاد وطفلتها البريئة ..

لما دعانى الساعى إلى الدخول بهرتنى فخامة حجرة مكتب الأستاذ إلهامى ، مددت يدى أصافحه بحرارة وامتنان أن اتسع وقته ليستمع إلى مسألتى ، دعانى إلى الجلوس ، جلست وأنا ألملم أفكارى ليخرج كلامى موجزاً واضحاً فى الوقت ذاته ..

ما أن هممت بالحديث حتى رن جرس الهاتف فرفع السماعة وهو يستأذننى للحظة كان أحد عملائه يسأله فى مسألة تخصه فانهمك فى الحديث معه بجدية بالغة ..

تجولت عيناى فى معالم الغرفة الجميلة حتى اصطدمت ببرواز مذهب يعلو هامة الرجل الوقور ، كانت اللوحة من القطيفة الحالكة السواد المشغول بخيوط من ذهب بخط أعجبنى .. وقرأت الكلمات "الرحمة فوق العدل" .

تسـمـرت نظراتى على اللـوحة ، شـعـرت بالكـلمـات تتـخللنى ، تملأ أعطافى بشـعور لطيـف بالراحة والسـعادة . شـعـور لـم أحسـه منذ زارتنى السيدة سعاد وأمها ..

- "الرحمة فوق العدل"

وخـيل إلىّ أننى أرى فى سـواد اللوحة وجـهى السـيدة سـعـاد وابنتهـا يبتسمان لى فابتسمت ابتسامة خفيفة واومأت أرد على تحيتهما ..

وكان الأستاذ إلهامى قد أنهى حديثه الهاتفى فوضع السماعة ملتفتاً إلىّ وقال معتذراً :

- "معذرة فقد كانت مسألة مهمة"

ثم تساءل "ما هى الخدمة التى أستطيع أن أؤديها إليك يا بنى ؟"

نهضت واقفاً ومددت يدى مصافحاً وقلت بإخلاص :

- "لقد أديت لى أعظم خدمة يا سيدى فلك منى كل الشكر"

- "ولكن ..... "

■○■

الحبيب المجنون

يزعمون أننى مريض .. يؤكد الدكتور فرج أننى أعانى من أعراض فقدان متعمد للذاكرة أهرب به من واقعى إلى أرض الخيال .. يلتبس علىّ الأمر .. لا اعود أعلم من أنا ولا أين أنا ؟

هم كاذبون .. أو لعلهم لا يعلمون .. إننى لست مريضاً .. لكننى حزين.. يتغلغل الحزن فى أعماقى ويتخللنى .. يتخلل كل عصب من اعصابى .. كل شريان ووريد .. ما عدت أحاول الهروب منه .. هو صديقى وأنيسى .. ينتابنى خوف مبهم أن أستيقظ يوماً فأجده قد رحل عنى وتركنى وحيداً ...

رحلت أغلى حبية واصطحبت معها البهجة والسرور .. شيعها الفرح إلى مثواها تحت التراب ورقد إلى جوارها هناك .. ماتت أمى . ماتت من كانت الدنيا تشرق لتبسمها .. ماتت من كانت همومى تتلاشى فوق صدرها ..

لا ..

بل قتلت .. قتلت وأنا عنها غائب .. انتهز أبى فرصة سفرى إلى إيطاليا للحصول على الدكتوراه فى الفنون التشكيلية واغتالها .. اغتالها بسيف الذل والقهر ولم يرحم قلبها المريض ووحدتها بعد أن غبت عنها فخلت الساحة أمامه ممن كان يتصدى لجبروته وظلمه .

ليتنى ما تركتها .. ليتنى ما استجبت لإلحاحها علىّ بالسفر .. هل تحالفت مع الموت ضدها يوم جمعت فرشى وألوانى وكتبى وسافرت ؟ طمع الزوج فى ثروتها الطائلة .. يبددها على الصبايا والموائد الخضراء .. وحشٌ خصّه القدر بزينة النساء فلم يرع لها حقاً ولم يقدر لها قيمة .. أبى أن ينصفها كما أبى أن يطلقها واستكانت هى لنصيبها وقنعت بمسالمته ومهادنته لتهب لابنها الوحيد فرصة الحياة بين أبوين متزوجين فلا يعانى مشاكل الطلاق ولا يتشتت بين بيت أمه وبيت أبيه ..

ثم اختصر فجيعة موتها فى بضع كلمات شيعها إلىّ تلغرافياً ..

حاصرته نظراتى المتهمة .. هو الذى عجل بموتها .. قهرها وحملها من سوء أخلاقه ما لا تطيق حتى انكسرت .. منع عنها الدواء والأطباء ليجبرها على بيع ممتلكاتها له جزءاً بعد جزء ..

وكأنه كان فى حاجة لأموالها ... كأن لم يكفه ميراثه الضخم وتجارته الواسعة .. ولكن من قال أن الطمع قرين الفقر ؟ أو أن القناعة فضيلة الأغنياء ؟

أذكر تلك الليلة .. ليلة عدت عقب وفاتها بأيام يغشى عينى حزن الدنيا كلها ..

تأنق فى ملبسه عقب انتصاف الليل .. صغت من مرارتى قذائف أطلقتها عبر عينى .. تساءلت بازدراء :

- "أفلا تقسر نفسك على البقاء فى المنزل لأسبوع واحد ولو تجنباً

للقيل والقال" ..

تمتم باستخفاف :

- "الحيّ أبقى من الميت" .

صبيت عليه حنقاً مخنوقاً وغضباً مكتوماً .. ملأت الصمت بيننا بصرخات خرساء .. التفت إلى ، أردف جملته الأولى بكلمات أكثر حدة :

- "هذا البيت بيتي كل ما فيه ملكي .. إن أردت البقاء فيه فالزم حدودك ولا شأن لك البتة بتصرفاتي .. كفاني سنوات المرض التي جثمت فيها أمك على صدري وأرتني من صور جنونها ألواناً"

صار لغضبي صوتٌ مسموع فانتفضت محتداً :

- "لا تتكلم عن أمي بهذه الطريقة.. أمي كانت أعقل إنسانة في الدنيا" .

ضحك متهكماً وقال ساخراً :

- "أمن تغدق أموالها على أغراب لا يمتون لها بصلة قرابة ولا يملكون لها نفعاً تنعتها بالعقل ؟ أعاقلة تلك التي تفتش عن جمعيات النصب التي تزعم أنها جمعيات خيرية بدلاً من أن تغلق بابها في وجوههم حماية لأموالها ؟ .. مجنونة تبحث في كل صوب وجهة عن لصوص يتصنعون الفاقة لتنفق عليهم .. كان الأجدر بها أن تقيم بثروتها الطائلة مشروعاً استثمارياً ضخماً تنمّي به أموالها ؟"

ساءني طعنه في كرمها المعروف عنها وجودها المشهود ولما يمض على وفاتها أيام ..

أردت أن أصرخ به أنه أول العالمين برجاحة عقلها ، لكن مثله لا يفهم للجود معنى ولا يقدر للأخلاق قيمة ... إلا أن صوتى انحبس من فرط انفعالى فمضيت أحرك راسي يمنة ويسرة بغضب دون أن يند عنى صوت ..

ظن أنه أفحمنى بما ضرب لى من أمثلة على جنون أمى .. انتشى ووضع ساقاً فوق ساق وبيده كأس من الخمر قال بكبرياء كريه :

- "إليك آخر آيات جنونها قبل أن يرحمها الموت من هذيانها ويرحمنى منها .. كانت تريد أن تهدر ربع ثروتها فى بناء مستشفى على أحدث طراز.. وأرقى مستوى .. ظننت أن عقلها قد عاد إليها وصارت تفكر كالبنى أدمين ، واعتقدت أنها تنوى بناء مستشفى استثمارى يدر علينا أرباحاً خيالية فإذا بها تريد أن تتبرع بهذه المستشفى ومصاريف إدارتها للفقراء .. الفقراء ؟ لتحسن للفقراء بجنيه ، بخمسة أو حتى بعشرة ... لكن بمستشفى ؟ مستشفى تبلغ تكاليفه الملايين ؟"

قهقه عالياً وهو يردد : "مجنونة .. مجنونة .. ألم أقل لك إنها مجنونة؟"

يا أغلى نساء الأرض عندى .. أهذا كان حلمك الأخير يا صاحبة الأحلام العظيمة ؟ رغباتك أوامر واجبة التنفيذ .. صرخت منفعلاً :

"أمى ليست مجنونة ... لكنها امرأة عظيمة وهذا شئ لن تفهمه وإن فهمته فلن تستسيغه .. المستشفى التى تمنتها أمى ستقام كما أرادت وأفضل.. انتظر وسوف ترى"

بهت لحظة ثم صاح غاضباً :

- "كنت أعلم أنك مجنون مثلها"

انتفض واقفاً ، ثم أمسك بقميصى وهزنى منه بعنف وهو يصرخ :

- "من أين ستأتى بالمال لمثل هذا السفه ؟"

بادلته صياحاً بصياح :

- "من ميراث أمى ..."

انفجر ضاحكاً بقسوة ثم رد بهدوء مخيف :

- "أمك باعت لى كل قشة تملكها قبل وفاتها"

ألقى بالحقيقة على رأسى كالقنبلة .. استحال شكى يقيناً ، إنه لم يعجل بموتها فحسب .. بل لقد ابتزها ابتزازاً حتى قتلها قهراً ..

قلت وأنا أرتجف من فرط الانفعال :

- "لن أترك بين يديك شيئاً كان يخص أمى الطاهرة .."

نظر إلىّ بازدراء وبصق كلماته بصقاً :

- "أنت لا تملك فى هذا البيت سوى ملابسك وألوانك فخذها وارحل عنه إلى الأبد" .

لم آس على شئ حين تركت البيت الذى شهد طفولتى وصباى ..

من أعماقى ارتحت للابتعاد عن أبى الذى لا أذكره إلا منغصاً علىّ وعلى أمى حياتنا .. عوضت شوقى إلى رؤية أمى ومتعلقاتها الصغيرة برسم صور كثيرة لها .. داويت ألم الحنين إليها بالترّحم عليها ليل نهار ..

سكنت فى شقة متواضعة دبرت قوتى بمرتبى من الكلية .. ما عدت أبالى بطعام أو شراب .. خلت الدنيا من الأحباب .. لا أخ ولا أخت ...

لا تعى ذاكرتى أقارب لأمى أو لأبى .. بعد أن مزق أبى بفظاظته أواصر القربى والرحم ..

أناوئ الحزن ويناوئنى ... هو سميرى فى كل الأحوال تشتد وطأته علىّ أحياناً حتى تكاد أنفاسى تزهق .. أهرع عندئذ إلى مستشفى الدكتور فرج .. صديق من أيام الطفولة ، عنده أجد الدواء والراحة أياماً قليلة أقضيها فى مصحته لأريح أعصابى المكدودة .. ما يريحنى فى مستشفاه أننى لا أعامل كمريض قط ..

- "اعتبر نفسك فى ضيافتى .. المستشفى بيتى الثانى .. وأنت هنا فى بيتك"

أتجول فى أرجائها دون قيود .. فرج صديقى الوحيد منذ الطفولة .. يسمح لى بالبقاء أحياناً فى حجرته الخاصة بالمستشفى .. يضحك ويقول معابثاً :

- "أنت لست من المرضى الخطرين لأحبسك فى حجرتك"

ابتسم بتردد .. لست أدرى إن كان يعابثنى حقاً أم يلبس ثوب المزاح ... لست واثقاً أننى مريض .. كل ما أعلمه أننى حزين .. حزين ..

أجاهره بآلامى وأحلامى ، هو الوحيد الذى أتجرد أمامه من أقنعة الحذر فأسكب بين يديه كل مخاوفى ..

- "لقد سمم أبى حياتى ... هل كانت أمى مجنونة حقاً وورثت عنها الجنون ؟ صارحنى بحقيقة مرضى وإلا فلماذا أتردد عليك هنا ؟"

يبتسم ويؤكد :

- "والدتك كانت من أحكم النساء اللاتى عرفتهن .. أنت يا نبيل لست مجنوناً ... أنت حرّ فى الانصراف وقتما تشاء وأنت تعلم ذلك .. لو كنت مجنوناً لوجدت نفسك سجين إحدى الحجرات هنا .. كل ما فى الأمر أن أعصابك مرهفة وقد تعرضت لضغوط كثيرة فى حياتك"

أرتاح للحديث معه .. أصارحه بكل ما يدور فى رأسى من آمال واحلام، أقول له وعيناى تبرقان :

- "سأبنى مستشفى بالمجان .. تماماً كما كانت أمى تتمنى ... ستتوافر فيها كل ما يحتاجه المرضى .. وسأستقطب لها خيرة الأطباء ..."

يبتسم الدكتور فرج ابتسامة مقتضبة ويقول بحذر :

- "لا تشتط فى أحلامك يا نبيل . أنت لم تعد تملك سوى مرتبك بعد أن اغتصب والدك ميراثك وهو لا يصلح .. لإقامة مشروعك العملاق .."

أرخى أهدابى على دموعى وأغرق فى كآبة تبدو بلا نهاية .

***

فتحت عينى بصعوبة .... شعرت بجفنىّ ثقيلين بدرجة غير معقولة .. سرعان ما سقطا على عينى .. استسلمت لذلك الإحساس الجارف بالإرهاق.. متى يا ترى غزا الألم جسدى واحتل كل عضلة من عضلاتى ؟

طرق سمعى صوت باب الحجرة يفتح وصوت أقدام تدلف إلى الداخل ببطء ..

جاء صوت الممرضة يهمس :

- "نام كثيراً"

رد عليها الدكتور فرج بنفس الصوت الهامس :

- "طبيعى بعد ما حدث ظهر أمس"

ماذا حدث بالأمس ؟ ما لكل شئ يبدو معتماً غارقاً فى ضباب أسود كثيف ؟

آخر ما أذكره أننى كنت أتناول غذائى .. هل كان بالطعام شئ ؟

جاهدت لأفتح عينى .. حاولت أن أتكلم .. خيّل إلىّ أن لسانى قدّ من حجر .. طالعنى وجه صديقى مبتسماً :

- "حمداً لله على سلامتك .. أرجو أن تكون حالك أفضل الآن .."

أفضل ؟ إننى لم أشعر بمثل هذا الإجهاد من قبل ..

انحنى علىّ يفحصنى .. انتبهت لوجود ضمادة على جبهته .. أومأت إلى جرحه بذقنى وتساءلت بوهن :

- "سلامتك .. ماذا حدث ..؟"

رمقنى بغموض وهو يبتسم ، عاود فحصى دون أن ينبس بكلمة ، اعترانى قلق مبهم .. هجس بى هاجس أن هناك علاقة ما أجهلها تربط بين

إعيائى وجرحه ..

حاولت أن أعتدل فى فراشى أسـرعت الممرضة تعاوننى .. قلت بإصرار رغم ضعفى :

- "أريد أن أعرف ماذا حدث" ..

ضحك متصنعاً المرح وقال :

- "ما تصورت أن فناناً رقيق البنية مثلك يتغلب علىّ"

أأكون مـريضاً بالفـعل ؟ أيكون الدكتور فـرج قد صدقـنى القول حين زعم أننى أصاب أحـياناً بفقدان مـتعمد للذاكرة فـلا أعود أدرى من أنا ولا ماذا أفعل ؟

فاضت عـيناى بالحيرة والقنوط .. سـرعان ما ترجـم صديقى نظراتى .. ربّت على كتفى قال مهوّناً :

- "ستصـير على ما يرام فلا تقـلق .. ذات يوم قريب ستمـارس حياتك الطبيعية .. كل ما فى الأمر ، أنك مفرط فى الحساسية ورقة الأعصاب"

- "ماذا فعلت بك ؟"

ابتسم مهوّناً :

- "يبدو أنك ظننت نفسك أحـد الفرسان فـاتخذت من سكـين الغذاء سيفاً وكدت تفقأ عين زعيم اللصوص لولا ستر الله"

رغم ابتسـامته والبسـاطة الى تحدث بهـا غرقت فى الخجـل والوحدة ،

انتابنى شعور جارف بالحنين إلى صدر أمى يحميني من ضعفى .. يحميني من زلاتى .. يحميني من الدنيا بأسرها ...

تمر أيامى متشابهة .. أتعامل مع زملائى وتلاميذى بآلية لا روح فيها .. وحين يبرح بى الشوق إلى البيت الذى شهد ذكريات طفولتى وصباى وضم أمى بين جوانبه ، اتخذ طريقى إلى هناك .. أحدق بالبيت محاذراً أن اصادف أبى فى غدوه أو رواحه ، ... من عجب أن مرور الأسابيع والشهور لم يخفف من حدة حنقى عليه .. لعل موت أمى قد ساهم من حيث لا أدرى فى تفجير ثورة غضبى المكتوم عبر السنوات ..

يظل أبى غصة فى حلقى .. يذكرنى وجوده برحيل أمى لطالما ساءلت نفسى لماذا لم أحاول أن أسترد منه حقى المسلوب فى ميراث أمى بدلاً من معاناتى فى تدبير عيشى بمرتب محدود يضيع أكثره على شراء الفرش والألوان فلا يبقى لقوتى إلا الكفاف .. دائماً أجد الرد فى قلبى .. لا اريد لاسم أمى أن ينتهك فى قاعات المحاكم .. أخشى أن يفترى على ذكراها فرية تخول له الاحتفاظ بما نهب ... فيروح يدنس اسمها الطاهر ويلصق به كل تهمة باطلة أو ادعاء كاذب ..

***

فى مصحة صديقى أرقد منذ أسبوع .. منذ ذلك اليوم الذى طالعتنى فيه الجريدة بنبأ موت أبى ميتة بشعة إذ انقلبت به سيارته وكان يقودها مخموراً فاشتعلت وهو بداخلها .

هكذا لحق بأمى بعد شهرين من وفاتها لا أكثر .. هل كانت تلك

الأسابيع القليلة تستحق أن يسبى أمى أموالها حتى تموت قهراً ، ويطرد ابنه الوحيد ، ويخسر دنياه وآخرته معاً ؟

وجدت نفسى الوريث الوحيد لثروة أمى التى انتزعت منى غدراً .. وثروة أبى التى صرت امتلكها كرها .. ما كانت نفسى تنفر من شئ قدر نفورها من امتلاك ما يذكرنى بأبى .. آن أوان تحقيق حلمك الأخير يا أمى . وبموت أبى حان وقت ميلاد مشروعك العظيم .. سيرى مستشفاك النور وسيحمل اسمك رمزاً للعطاء الغير محدود .

عدت إلى البيت الذى تربيت فيه صغيراً وطردت منه كبيراً .. إلى دار شهدت ضحكاتى وأحلامى وكل أحزانى .. مالكاً لها ولكل شئ فيها .. شاب فى الثلاثين ذو مركز مرموق وثروة طائلة ، فما بال الحزن يجثم على صدرى حتى يكاد يزهق أنفاسى ؟ مالى أختنق هكذا حتى أجد نفسى غير قادر على الإقامة فى هذا البيت ولو ليوم واحد .

لا .. لم يكن موت أبى على هذا النحو هو ما دفع بى إلى مستشفى الدكتور فرج لأريح أعصابى المكدودة . بل كانت عودتى للبيت .. واكتشافى أن أبى قد تخلص من كل أثر لأمّى ، ملابسها .. اسطواناتها .. أدواتها الشخصية .. كل شئ .. كل شئ حتى صورها الموضوعة قرب فراشى ألقى بها بإهمال فى قعر الدولاب .. وكأن أمى قد ماتت ثانية ... أى معنى للمنزل دونها .. أى معنى للحياة إن خلت منها ؟

***

جلست فى حجرة الدكتور فرج أنتظر أن ينتهى من عمله ليصحبنى إلى

شقة واسعة استأجرها لى بدلاً من الشقة الصغيرة التى كنت أقطن بها .

استراحت أعصابى بعد ثلاثة أسابيع قضيتها تحت رعايته .. عسى أن أتحرر من ذكرياتى الحزينة بعد أن مات الرجل الذى سمم أيامى وأرهق أعصابى .. انتبهت على طرقات رقيقة على الباب ، التفت ناحيته .

فتح الباب برقة ودلفت منه فتاة خفق قلبى لمرآها .. وكأننى أعرفها منذ دهر .. حتى لأكاد أقسم أننى قد رأيتها من قبل ..

ابتسمت لى بألفة مدت إلى يدها بمودة :

- "يسرنى أننى وجدتك بسهولة يا دكتور نيل" .

فغرت فاهى ببلاهة .. تركت يدى فى يدها .. توقف تفكيرى لبرهة .. كيف عرفت اسمى ..؟ لماذا تضع لقب "الدكتور" قبله .. ما تلك المودّة التى تصبغ كلماتها وكأنها تعرفنى ... ؟

- "معذرة .. هل التقينا من قبل ؟"

تجلت خيبة الأمل فى وجهها الجميل برهة ثم سرعان ما أشرق بالابتسام وهى تقول ملتمسة لى العذر :

- "عفواً .. لقد نسيت أنك تعود فى كل يوم عشرات المرضى .. أنا سامية يا دكتور .. سامية أمين .. ابنة الحاجة نعمة !"

مسكينة هذه الفتاة .. أتكون إحدى المريضات غافلت ممرضاتها وخرجت تتجول فى أرجاء المستشفى لا تدرى من هى ولا أين هى ... ؟ لكنها تعرف اسمى .. فأنّى لها هذا ؟

دعوتها للجلوس .. جلست مترددة وهى تهمس :

- "كنت أود أن تأتى معى إلى البيت عساك تستطيع إقناع أمى بتناول الدواء .. فقد عادت ترفض تناوله .. أخشى أن تعاودها حالة الشلل المؤقت ثانية"

مست وتراً حساساً فى قلبى .. تمتمت بحنين غامض :

- "أمك مريضة ؟"

تشجعت برنة الاهتمام فى صوتى ، انطلقت تقول :

- "هل نسيت يا دكتور نبيل حين حضرت إلى المستشفى منذ أسبوعين أبحث عن الدكتور فرج لأن أمى أصيبت بنوبة من نوبات الشلل التى تنتابها بين الحين والآخر .. تلك النوبات التى أصابتها عندما توفى أبى فجأة بذبحة صدرية .. وكانت تحبه حباً جماً .. أيامها نقلتها أنا وشقيقى عبد الله إلى المستشفى ففحصها الدكتور فرج وقال إنها حالة مؤقتة سببها عصبى ووصف لها أدوية تحسنت حين تناولتها .. ثم عاودتها نفس الحالة حين هاجر أخى على غير رغبتها إلى استراليا .. فعادت إلى العلاج ذاته .. هل تذكرتنا الآن يا دكتور نبيل ؟"

رباه !!

ما لذاكرتى تخوننى . هذه الفتاة تعى ما تقول .. لكننى لا أعرفها ... لا أتذكرها . سألتها متردداً :

- "لكننى لم أر والدتك من قبل . أليس كذلك ؟"

- "رأيتها مرة واحدة فقط .. منذ أسبوعين يا دكتور .. حين عاودت أمي نفس الحالة لدى سماعها نبأ إصابة أخي في ذراعه أثناء عمله .. ورغم أنه تحدث إليها بنفسه مطمئناً إلا أنها ظلت تبكي طوال الليل وأصبحت لأجدها لا تقوى على تحريك ساقيها .. لهذا هرعت إلى المستشفى .. أنت تعلم أن بيتنا ملاصق لها .. كان الوقت مبكراً فلم أجد في حجرة الدكتور فرج طبيباً سواك" .

داهمتني الحقيقة قاسية .. خدعت المسكينة في حقيقتي .. أكاد أرى بقية ما حدث رؤية العين تجولت في المستشفى كعادتي فلم يعترضني أحد .. كيف يمنعني أحد من دخول أي حجرة وأنا أعزّ صديق للدكتور فرج صاحب المستشفى ؟ وصلت الفتاة الرقيقة في وقت مبكر اندفعت إلى حجرة الطبيب الذي يتابع والدتها لم تجده ووجدتني .. وجدتني وأنا لحظها التعس في إحدى نوبات فقدان الذاكرة .. لعلي أكون قد أوهمتها في ذهولي أنني طبيب .. مؤكد أن هذا قد حدث .. وإلا ففيم مناداتها لي بلقب "دكتور" ..

لعلي ذهبت معها إلى البيت كما يوحي بذلك كلامها .. ما أشد خشيتي أن أكون قد وصفت لأمها علاجاً أملاه عليّ جنوني .. شعرت بقلبي يهصر قلقاً .. ازدردت ريقي بصعوبة تمتمت كاذباً في محاولة لاستشفاف الحقيقة :

- "نـ .. نعم .. نعم .. تذكرت يا آنسة .. تذكرت السيدة الغالية والدتك.. خبريني كيف حالها الآن ؟ ذكريني - فقد نسيت .... هل وصفت لها علاجاً محدداً ؟"

كسا السرور وجهها لتذكرى إياها قالت :

- "لقد أطلعتك على الأدوية التى وصفها لها الدكتور فرج من قبل أقررتها كلها .. وأمرتها بإعادة أخذ نفس الأدوية .."

تنفست الصعداء .. غمرتنى الراحة .. ساد الصمت لحظة تضرج فيها وجهها الجميل ازدادت فى نظرى فتنة ، أضافت بتردد :

- "كان لك أسلوب جميل فى إقناعها بتناول الدواء .."

- "حقاً ؟؟"

غالبت خجلها وأوضحت :

- "لا زلت أذكر كيف أنك لم تحاول إقناعها بأسلوب علمى جاف عن فائدة الدواء لها.. أو عن مدى الضرر الذى قد يصيبها إن أصرت على رفض العلاج .. سألتها حينذاك عن مطربها المفضل ، تعجبت من سؤالك هذا حتى كدت أشك فى كفاءتك العلمية ... ردت عليك بأنه عبد الوهاب رحت تدندن بأغنية "يا ورد مين يشتريك"، ما أن لمحت ظل ابتسامة على وجهها حتى جعلت تنسق حبوب الدواء فى كفها حبة حبة وأنت تقول :

- "...."

صمتت محرجة وكأنها أدركت أنها وهى تتكلم كانت كل جوارحها ترتعش من الانفعال وكأنها تعيش تلك اللحظات مرة ثانية .. كم بدت جميلة وهى تلقى علىّ بحديثها .. النابع من قلبها ... لعمرى ... كيف

تذكر تفاصيل ماحدث وتكاد تعيد على مسمعى ما قلت كأن مرور أسبوعين لم يمحيا من ذاكرتها حرفاً .. كأن ما قلت وما فعلت يعنى لها .. يعنى لها شيئاً هاماً ..

شجعتها على الاسترسال مبتسماً .. غمرنى من رقتها وعذوبتها نفحة أسكرتنى :

- "ماذا قلت لها عندئذ ؟"

ارتعشت أهدابها فوق عيون ساحرة ، ترددت برهة قبل أن تندفع قائلة بسرعة وكأنها تخشى لو أبطأت أن ينهاها حياؤها عن البوح :

- "قلت لها : هاك وردة بيضاء .. غار النهار منها خجولة محتارة" ووضعت فى يدها قرصاً أبيض أكملت : "وتلك وردة صفراء من السقم أم من فرقة الأحباب ؟"جففت دمعة سالت على خدها إذ تذكرت شقيقى عبد الله .. ثم أكملت :

"تلك وردة حمراء .. تكتم جرحها الدامى ." وضعت القرص الأحمر فى يدها .. ثم أخذت القرص الأخضر ووضعته معهم قائلاً ... "هاك باقة من الورد بين يديك فكيف بالله تعرضين عنها ؟"

شعرت بكلماتها تحيينى .. ها هى إنسانة تهتم بما أقول وأفعل .. لعلها أول من تعبأ بما يند عنى منذ رحلت أمى الطاهرة عن تلك الدنيا المجحفة .. لعل الله قد وضعها فى طريقى لتصير مناراً لروحى الهائمة فى دنيا الأحزان .. وجدت نفسى أهتف بحرارة : "أطلبى ما شئت .. تجدينني طوع أمرك"

أغضت ، تورد وجهها كأنها لم تتوقع منى ذلك الحماس بعدما لمست فى بدء لقائنا "نسيانى" لها وسط خضم "مرضاى" .. رنت إلىّ بعذوبة ، تعانقت نظراتنا بشغف .. نسيت المكان والزمان .. وما جاء بها إلى هنا ، كدت أطلب إليها أن تواعدنى فى مكان عملى لاتخذ من وجهها مثالاً أصوره فى هالة من النور بعد أن أوحت لى رقتها بلوحة حالمة انتزعت عينيها وكأنما أفاقت ، قالت بصوت خفيض :

- "أتستطيع أن تأتى معى إلى البيت الآن لتهدئ من روع أمى وتصف لها مهدئاً .. لعلك تنجح فى إعطائها الدواء كما فعلت من قبل .. أم أننى قد أثقلت عليك ؟ .."

***

تركتنى سامية فى صالون البيت واستأذنتنى لتخبر أمها بوصولى .. طرقت أذنى ألحان تنساب من أعماق البيت فأرهفت السمع ..

يا مسافر وحدك .. يا مسافر وحدك .. وفايتنى

ليه تبعد عنى .. ليه تبعد عنى .. وتشغلنى

ودعنى من غير ما تسلم .. وكفاية قلبى أنا مسلم

دى عينى دموعها .. دموعها بتتكلم

عادت سامية إلىّ .. ابتدرتها :

- "أرجو أن تكون حالة والدتك النفسية أفضل ... فها هى تستمع إلى مطربها المفضل" .

تنهدت بحرقة ، مسحت دمعة غافلتها وقالت :

- "إن لهـا ثلاثة أيام ترفض الطعـام والدواء ولا تكف عن سـمـاع هذه الأغنية وصورة أخى أمام عينيها .."

***

ربت على يد الحاجة نعمة ، قلت باسماً :

- "الآن وقد تناولت الدواء وأكلت غذاءك .. آن لـك أن تلتمسي بعض الراحة فى النوم ..."

ابتسمت العجوز بامتنان ، مـدت يدها ناحية المسجل ضغطت على الزر تستعيد أغنية "يا مسافر وحدك" ..

رفقاً بقلبك يا أماه !! شد ما عانيت وأنا عنك غائب فى بعثتى ... ليتنى ما تركتك وحدك تقاسين المرض والغربة بين جدران بيتك !

طفـرت دمـعة إلـى عينى ، جـاهدتهـا لئـلا تنحـدر .. مـددت يدى إلى الشرائط المرتبة بعناية إلى جوار المسجل . اختـرت شريطاً بدلته بالموجود فى المسجل ... انساب صوت عبد الوهاب عذباً يملأ فضاء الحجرة بالأمل :

"يا دنيا يا غرامى .. يا دمعى يا ابتسامى

مهما كانت آلامى .. قلبى يحبك يا دنيا"

هطل الدمع من عين أمى فى صمت امتـدت يد سـاميـة إلى المسـجل فأوقفت بضغطة من أناملها الرقيقة انسـياب الألحان وقالت ووجها يتضرج بحمرة فاتنة :

- "لم لا تغنى لها تلك الأغنية الجميلة كما فعلت فى المرة السابقة يا دكتور نبيل ؟"

- "أأنا غنيت لأمى من قبل ؟"

استدركت : "عفواً أعنى للحاجة نعمة ؟"

تكلمت العجوز لأول مرة أسرعت تقول بصوت ناء بحمل السنين ووجع الفراق :

- "استحلفك بالله يا ولدى أن تنادينى "أمى" كما فعلت الآن .. قد انشرح قلبى منذ وقعت عليك عيناى .. بل إننى أنا التى أسألك أن تأذن لى أن اعتبرك ولداً لى .."

آه يا أمى الحبيبة !

هل تعودين إلى مرة أخرى بما يشبه المعجزة ؟؟

أردت أن أقول شيئاً .. تحشرج صوتى .. وأردت أن أدفن نفسى فى صدر أمى فعاقنى الحياء .. مددت يدى إلى يدها ... انحنيت أطبع عليها قبلة .. ربتت بيدها الأخرى على كتفى بحنان ..

عادت سامية تقول :

- "أعد على مسامعى أغنيتك الجميلة يا دكتور .. إننى أود أن أحفظ أبياتها .."

سألتها :

- "أى أغنية ؟ إننى .. فى الواقع .. لا أتذكر أية أغنية"

راحت تغنى بمرح :

"لو كنت أمير من أمراء الحواديت

كنت أدى لكل طفل بيت

و .. وماذا بعد ؟"

رنوت إليها بحنان .. أحقاً .. غنيت تلك الأغنية ؟ تلك أغنية كانت تهدهدنى بها أمى وأنا طفل صغير .. كنت أظننى قد نسيتها تماماً .. ما الذى بعث بها من غياهب الماضى إلى لسانى أهدهد بها أمى ..

قلت بتردد :

- "لا أظننى أذكر أبياتها ..."

صاحت الفتاة الجميلة باسمة :

- "لا تحاول الهرب يا دكتور .. لقد غنيتها لنا منذ أسبوعين لا أكثر .."

أضافت على استحياء :

- "صوتك كان رخيماً ..."

تشجعت بإطرائها .. حاولت أن أتذكر الأبيات .. مضيت أغنى :

- "لو كنت أمير من أمراء الحواديت

كنت أدى لكل طفل بيت

قطر بقضبان .. علبة ألوان

ميّة أو زيت

لو كنت أمير من أ مراء الحواديت

كنت ازرع كل جنينة وغيط

بحب الرمان وقمح عيدان

وعنب عناقيد"

أدرت عينى فى المكـان احتضنتنى عـيون حنونة .. شـعرت بألفة غـريبة تسرى فى أوصالى .. وتحسست موضع الحزن فى قلبى فهالنى أننى لم أجد له أثراً ..

عند باب الشقة ودعتنى سـامية شاكرة .. حملت عيـنيها نظرة أعمق من نظرة الشكر .. داعب قلبى أمل غامض أن تبتسم لى الدنيا عما قريب ..

قالت بصوت منهدج قبل أن تغلق الباب ورائى :

- "أتعدنا بزيارة أخرى يا دكتور نبيل ؟"

انتشيت للدعوة .. قلت بسرعة :

- "دون شك .."

خطر لى أننى قـد أكون الآن فى حـالة من الحالات التى يقـول الدكـتور فرج أننى امـر بها التى أكـدتها سامـية بحكايتـها .. وأننى قـد أفيق من هذه الحالة فأجد سامية وأمى قد ضاعتا فى دنيا النسيان .. قلت :

- "اكتبى لى العنوان بالتفصيل.. الحقيقة أننى كثيراً ما أنسى العناوين.."

التمست لى العذر سريعاً :

-"كان الله فى عونك .. وقوّاك على القيام بكل هذا المجهود .."

اجتاحنى شعور طاغ بالذنب ، كرهت انخداعها بحقيقة هويتى أردت أن أعترف لها بكل شئ ، بيد أن شجاعتى خانتنى تراجعت مكتفياً بقولى :

"لا .. لا .. لست مشغولاً .. ولكنى أحياناً أنسى العناوين والأسماء والمواعيد .. أنا لا أريد أن أنسى عنوانك .. وعنوان أمى .. لا أريد أن أنسى موعدنا : ما رأيك فى الثلاثاء القادم ؟"

***

صار يوما الثلاثاء والجمعة من كل أسبوع موعدين للقاء دائم فى بيت أمى الحاجة نعمة .. عندها وجدت أمى وكأنما بعثت من جديد .. هى كذلك اتخذتنى ابناً واستعاضت بى عن ابنها الغائب .. تهتم بأمرى وتتعزى بانشغالها بى عن شوقها المضنى لولدها .. تطيعنى فتنتظم فى العلاج وتهتم بطعامها ومواعيد نومها .. تغضب منى ، تكاد تعنفنى حين تلاحظ علىّ شحوباً أو ترى بصمات الإرهاق واضحة على وجهى .. تأمرنى بالاهتمام بتناول الطعام والحصول على قسط وافر من الراحة تهددنى أن تعود سيرتها الأولى من الاكتئاب والعزوف عن العلاج والطعام إن أنا أهملت صحتى ..

هناك أيضاً كان قلبى يخوض بحراً من المشاعر الجديدة..مشاعر تدغدغه وتخدره تأخذه من هذه الدنيا إلى عالم لا محل للألم أو الحزن فيه .

أغوص أكثر فى عالمهما ، ألمس من مشاكلهما ما كنت أجهل ، من

حبيبتى علمت أن مشكلة أمها الصحية ليست في شللها العصبى فحسب.. بل إن معاناتها الحقيقية تأتى من تلف إحدى صمامات القلب وأنها بحاجة إلى عملية معقدة فى الخارج تربو تكاليفها على المائة ألف جنيه .

تدمع عين سامية :

- "ذلك حلم مستحيل .. كُتب على أمى أن تعانى حتى آخر يوم من عمرها يا دكتور"

أقول بإصرار :

- "ستسافر أمى للعلاج"

تسبح عيناها الجميلتان فى الحيرة تقول بتردد :

- "هذا أمر محال .. لو بعنا كل قشة نمتلكها لما جمعنا ربع المبلغ المطلوب .."

- "سأتكفل بكل شئ !"

أصم أذنى عن اعتراضاتها واعتراضات أمى ، أى معنى للمال إن لم يجلب لنا السعادة .. أى سبيل للسعادة إلا بالعطاء ؟ .. بلا حدود .. بلا مقابل .. هكذا علمتنى أمى ..

- "هذا أكثر مما ينبغى يا ولدى .. هذا جنون ... لن يسعنى يوماً أن أسدد لك هذا الدين الضخم .."

أقول بصدق :

- "أنا المدين لك ولسامية بأضعاف هذا المبلغ .. كيف تضعين مجموعة من الأوراق ذات الألوان والأرقام فى كفة مقابل مشاعر الحب المنزهة عن كل غاية ؟"

تعترض سامية :

- "كيف تهدر أموالك على هذا النحو، هى الأمان لك مما تأتى به الأيام؟"

ألقت بى من حيث لا تدرى إلى ذكريات الماضى . استعدت حياة الترف التى عاشها أبى متمتعاً بثروته الطائلة وثروة أمى الهائلة .. لكن أى أمان اشترته لى تلك الأموال وأية سعادة هذه التى ابتاعتها لى ثرواتهما ؟ إن لحظات السعادة القليلة فى طفولتى لم يهبها لى سوى حب أمى الطاغى وحنانها .. هو شئ لا دخل فيه للمال من قريب أو بعيد .. المال ؟ هل جلب المال لنا إلا الحزن .. من الذى جعل أبى جشعاً وقتل أمى قهراً ؟

- "ما ابتاع المال الأمان يوماً يا سامية !"

يوماً قالت لى سامية ونحن نحتسى الشاى فى الفراندة وقد غابت أمى عنا قليلاً ريثما تصلى العصر :

- "أشعر يا دكتور نبيل أننى أعرفك من قبل أو أولد"

أطرقت برهة وقلبى ينازعنى أن أسكب كل ما فيه بين يديها معترفاً بالحب والوجد والشوق .. ، .. قلت لنفسى إن الحب والخداع لا يجتمعان فى قلب واحد .. علىّ أن أتخلص من أحدهما إن أردت للآخر أن يسود ..

قررت أن أقـامر برصيدى لدى فـاتنتى وأبوح لها بالحقـيقة كـاملة ، قبل أن يتغلغل الحب فى أعماق كل منا ويصبح الاعـتراف عندئذ ضرباً من الإجبار على قبول الأمـر الواقع لا محل للاختيـار فيه . هل للاختـيار مكان بعد أن يستحوذ الحب على كياننا ، يسلب عقولنا ، يجردنا من المنطق ؟

***

لم أر أجمل من عينى سـامية بعد أن أنهيت اعترافى كـاملاً بين يديها .. حكيت لها عن طفـولتى .. اغتيال أمى بسـيف القهر .. اعتـرفت لها بمهنتى الحقيقيـة .. بمرضى الذى لم يعاودنى منذ وجدت لى أماً ثانية وحبيـبة غالية .. هتكت الستر عن أكذوبة الطبيب التى تسترت بها أسابيع قليلة خشية أن تنبذنى من حياتها حين تعلم بمرضى ..

- "كنت أعلم منذ ثالث زيارة لنا أنك لست طبيباً"

ظننت أننى سأفاجئها فإذا بها تذهلنى ... فغرت فاهى بدهشة

اتسعت ابتسامتها وأضافت :

- "كنت أنتظر اعترافك هذا منذ أن عرفت الحقيقة" .

سألتها :

- "الدكتور فرج ؟"

أوضحت :

- "شككت فى أمرك حين وجـدتك تعطى لأمى قرص فيتـامين وقرص كالسـيوم مؤكداً عليـها أن الانتظام فى أدوية الأعصاب هذه مـهم للغاية فى

علاجـها اتصلت بالدكـتور فرج .. جـاء فى نفس الليلة مهـرولاً خشـية أن تكون قد وصـفت لأمّى دواءً يضر بها أو جرعـات أكثر مما ينبغى ، طمـأنته أنك فى زيارتيك السـابقتين أقـررت العلاج الذى وصـفه من قبـل ، اطمأن وارتاح .. استـفسـرت منه عن الحقـيقـة علمت منه كل ما قلتـه لى لولا أن روايتك بها تفاصيل أكثر بكثير ..."

أطرقت أعانى الخجل .. أكل هذه الأسابيع كنت أكذب وهى تعلم ... تراقبنى عن كثب فى انتظار أن أثوب إلى الحق وأعترف بما كنت أخفيه ؟

تساءلت :

- "وأمى ؟"

- "كانت معنا وسـمعت كل ما قاله الدكتور فـرج .. قالت له بعدها ألا يخـبرك بشئ وأضـافت : هو ولدى وحـبيبى .. ليكن طـبيـباً أو رسـاماً أو صعلوكاً .. ليـكن مريضاً أو صحيـحاً معافى ... هو فى كل الأحـوال حبة القلب ، وقرة العين ...."

سرى عنى قولها ابتسمت متشجعاً ، تساءلت :

- "ما ذا عنك يا سامية" .

- "لو لم تبح لى بالحقيقة لشككت فى حكم قلبى عليك"

رنوت إليها بهـيام فبادلتنى نظرة دافـئة عبقة بالمشـاعر الحميمـة وامتدت يدى تبحث عن يدها تعانقها .. فتناجت أناملنا بأعذب الكلمات ...

***

كانت المرة الأولـى التى شعرت فـيهـا بامتنان لثروتـى يوم عادت والدة

سامية مع ابنتها سليمة بعد رحلة علاج استمرت ستة أسابيع كان الحب قد نما بينى وبين سامية عملاقاً وارتفع يحلق فى سماء العشق مثلما ارتفع بناء المستشفى على أرض الواقع .

- "يوم تسترد أمنا عافيتها يكون يوم زفافنا ..."

ابتسمت بعذوبة قالت بامتنان :

- "سأظل مدينة لك بنجاة أمى العمر كله !"

- "لم أفعل إلا الواجب"

ضحكت برقة وقالت :

- "أليس من العجيب أن تشفى أمى من نوبات الشلل المؤقت التى كانت تنتابها من حين لآخر ؟"

- "فضل من الله" .

- "العقل يقول إن هذا الشفاء كان يجب أن يتم على يدى الدكتور فرج"

ابتسمت ولم أحر جواباً .. وددت أن أقول لها إننى لم يشفنى علاج الدكتور فرج بقدر ما شفانى حبها وحب أمها المخلص لى ..

أضافت وابتسامتها تتسع :

- "والجنون يقول أن يتم الشفاء على يديك أنت"

عابثتها :

- "لكنها شفيت على يدى أنا ما قولك فى هذا ؟"

- "أقول إنه لا يوجد فارق بين العقل والجنون فهما وجهان

لعملـة واحدة"

تأملت قولها برهة أومات أؤمن عليه ، استطردت :

- "لكن أليس ممنوعاً أن يقوم بالعلاج من لا يعمل بالطب ؟"

- "أحياناً لا يكون ممنوعاً" .

رمقتنى بدلال ، قالت بنعومة :

- "إن لم يكن ممنوعاً .. عالجنى مما أعانى ..."

ذبت تحت حرارة نظرتها ، تساءلت بقلب خفاق :

- "مم تعانين ؟"

همست :

- "من الحب"

امتدت يدى تبحث عن يدها حين انسابت إلى أذنى موسيقى تنبعث من حجرة أمى التفت لأجدها جالسة على كرسيها العـتيق ترقبنا عن بعد وهى تبتسم .. صدح صوت عبد الوهاب يملأ فضاء المكان :

إوع تقول ممنوع الحب

إوع تزعل م اللى يحب

كل شئ ممنوع فى الدنيا

إلا الحب .. إلا الحب

■○■

الفهرس

المؤلف

دكتور / محمود دهموش

- بكالوريوس الطب والجراحة ودرجتا ماجستير فى الجراحة العامة وجراحة العظام .
- دكتوراه فى جراحة العظام .
- استاذ جراحة العظام بالأكاديمية الطبية العسكرية .
- اشترك كضابط طبيب بالقوات الجوية فى حرب اليمن - حرب ١٩٦٧ - حرب الاستنزاف - حرب أكتوبر ١٩٧٣ .
- عضو فى جمعيات جراحة العظام المصرية وجمعية جراحة اليد البريطانية وجمعية جراحة الركبة الأوربية .
- أنتج برامج طبية درامية وأذيعت فى العديد من البلدان العربية وعلى أكثر من شبكة تليفزيون .
- حائز على ثلاث جوائز فى القصة من نادى القصة .
- نشرت له مجموعات قصصية فى الأهرام "ملحق الجمعة الأدبى" ومجلة "آخر ساعة" ومجلة "اكتوبر" .
- مؤلفاته :

«الحبيب المجنون» - قصص قصيرة - مركز الحضارة العربية ١٩٩٨

«فندق بدون نجوم» - قصص قصيرة - تحت الطبع

«خلف الأبواب المغلقة» - رواية - تحت الطبع

«ثمن الأحلام» - رواية - تحت الطبع

قائمة إصدارات
مركز الحضارة العربية

روايات ..

إينارو	د. على فهمى خشيم
تحولات الجحش الذهبى	لوكيوس أبوولوس ترجمة د.على فهمى خشيم
مسالك الأحبة	خيري عبد الجواد
العاشق والمعشوق	خيري عبد الجواد
الخروج إلى النبع	محمد قطب
حافة الفردوس	نبيل عبد الحميد
الدميرة	د. عبد الرحيم صديق
حمدان طليقاً	أحمد عمر شاهين
ترانزيت	ليلى الشربينى
مشوار	ليلى الشربينى
الرجل	ليلى الشربينى
رجال عرفتهم	ليلى الشربينى

قصص قصيرة ..

مطربة الغروب	جمال الغيطانى
مخلوقات الأشواق الطائرة	إدوار الخراط
حرب بلاد نعم	خيرى عبدالجواد
حكايات الديب رماح	خيرى عبدالجواد
حرب أطاليا	خيرى عبدالجواد
الحبيب المجنون	د . محمود دهموش
سيرة عزبة الجسر	سعد الدين حسن
خلف النهاية بقليل	وحيد الطويلة
الممنوع من السفر	شوقى عبد الحميد
شجرة الخلد	سعد القرس

شوقة	سعيد بكر
أيام هند	سيد الوكيل
فرد حمام	يوسف فاخورى
خبرات أنثوية	قاسم مسعد عليوه
الفوز للزمالك والنصر للأهلى	عبد اللطيف زيدان
فى لهيب الشمس	رأفت سليم
نسيج الأسماء	منتصر القفاش
ليس هناك ما يبهج	عبده خال
لا أحـــــد	عبده خال
أحزان رجل لا يعرف البكاء	خالد غازى
الشاعر والحرامى	عزت الحريرى
رشفات من قهوتى الساخنة	محمد محى الدين

شعر ..

سراب القمر	فاروق خلف
إشارات ضبط المكان	فاروق خلف
قصائد حب من العراق	البياتى وآخرون
أول الرؤيا	إبراهيم زولى
رويدا باتجاه الأرض	إبراهيم زولى
نصف حلم فقط	عماد عبد المحسن
حواديت لغنمى	عصام خميس
منيـــا تنادينا	طارق الزياد
صلاة المودع	صبرى السيد
من فصول الزمن الردىء	درويش الأسيوطى
غربة الصبح	محمد القارس

الغربة والعشق — مجدى رياض

عطر النغم الأخضر — عمر غراب

العجوز المراوغ يبيع أطراف النهر — نادر ناشد

هذه الروح لي — نادر ناشد

في مقام العشق — نادر ناشد

ندى على الأصابع — نادر ناشد

إتعب قبل أن أبكى — د. لطيفة صالح

مسرح ..

هذه الليلة الطويلة — د.أحمدصدقى الدجانى

اللعبة الأبدية ـ (مسرحية شعرية) — محمد الفارس

ملكة القرود — محمود عبدالحافظ

دراسات ..

آلهة مصر العربية — د . على فهمى خشيم

رحلة الكلمات — د . على فهمى خشيم

بحثاً عن فرعون العربى — د . على فهمى خشيم

أباطيل الفرعونية — سليمان الحكيم

مصر الفرعونية — سليمان الحكيم

هاجس الكتابة — د . أحمد إبراهيم الفقيه

تجليات عصر جديد — د . أحمد إبراهيم الفقيه

حصاد الذاكرة — د . أحمد إبراهيم الفقيه

الجات والتبعية الثقافية — د. مصطفى عبد الغنى

ضد هدم التاريخ وموت الكتابة — أحمد عزت سليم

فى الموجهة الاجتماعية للفكر والإبداع — محمد الطيب

زمن الرواية : صوت اللحظة الصاخبة — مجدى إبراهيم

البعد الغائب : نظرات فى القصة والرواية — حاتم عبد الهادى

ثقافة البادية — سمير عبد الفتاح

أعلام من الأدب العالمى — على عبد الفتاح

المثل الشعبي بين ليبيا وفلسطين — خليل إبراهيم حسونة

أدب الشباب في ليبيا — خليل إبراهيم حسونة

العنصرية والإرهاب فى الأدب الصهيونى — خليل إبراهيم حسونة

تراث ..

كشف المستور من قبائح ولاة الأمور — د . أحمد الصاوى

رمضان .. زمان — د . أحمد الصاوى

القصص الشعبى فى مصر — إعداد خيرى عبد الجواد

إغاثة الأمة فى كشف الغمة

الفاشوش فى حكم قراقوش

الحكمة المدنية لابن المقفع

فنون ..

ماضى السينما — صلاح أبو سيف

قضايا المونتاج المعاصر — د . عفت عبد العزيز

الصوت والضوضاء — د . مصطفى عبد المطلب

بالإضافة إلى :

كتب متنوعة : سياسية - قومية - دينية - معارف عامة - أطفال .

خدمات إعلامية وثقافية (اشتراكات) : ملخصات الكتب - وثائق - النشرة الدولية - دراسات عربية - معلومات - ملفات صحفية موثقة.

الآراء الواردة فى الإصدارات لا تعبر بالضرورة عن آراء يتبناها المركز

الحبيب المجنون

لم أستطع أن أرد عليها ، ولم يطاوعنى قلبى أن أحطم حلمها .. وأقول لها إن العلم يقول والطب يؤكد أنها لو تزوجت فلن يتحمل قلبها هذا العبء وأنها ستموت فى غضون أسابيع أو شهور ، وما جدوى أن أذكرها بحقيقة مؤلمة هى أعلم الناس بها .. وحتى لو حلت بينها وبين الزواج فما أدرانى أنها قد تعيش شهراً آخر أو شهرين .. لعل الحزن والقهر يقتلانها .. وربما كان الموت حباً أفضل من الموت حزناً ..

من قصة
(الموت حُبّاً)



دكتور / محمود دهموش

- دكتوراه فى جراحة العظام.
- استاذ جراحة العظام بالأكاديمية الطبية العسكرية.
- اشترك كضابط طبيب بالقوات الجوية فى حرب اليمن ، حرب ١٩٦٧ ، حرب الاستنزاف ، حرب أكتوبر ١٩٧٣ .
- أنتج برامج طبية درامية وأذيعت فى العديد من البلدان العربية وعلى أكثر من شبكة تليفزيون .
- حائز لثلاث جوائز فى القصة من نادى القصة .

